الفصل السابع

الرسل من غير أولى العزم

١- ادريس عليه السلام
٢- هودٌ عليه السلام
٣- صالحٌ عليه السلام
٤- لوطٌ عليه السلام
٥- إسماعيلُ عليه السلام
٦- إسحاق عليه السلام
٧- يعقوبُ عليه السلام
٨- يوسفُ عليه السلام
٩- شعيبٌ عليه السلام
١٠- أيوب عليه السلام
١١- ذو الكفل عليه السلام
١٢- هارون عليه السلام
١٣- داود عليه السلام
١٤- سليمان عليه السلام
١٥- إلياس عليه السلام
١٦- اليسع عليه السلام
١٧- يونس عليه السلام
١٨- زكريا عليه السلام
١٩- يحيى عليه السلام

obeikandl.com

obeikandl.com

ادريس عليه السلام

ـ ١ ـ

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

من سورة مريم: الآيتان (٥٦ ـ ٥٧)

إدريس عليه السلام هو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز، وذكره في بضعة مواطن من سور القرآن.. وهو ممن يجب الإيمان بهم تفصيلاً أيْ يجب اعتقاد نبوّته ورسالته على سبيل القطع والجزم، لأن القرآن قد ذكره باسمه وحدّث عن شخصه فوصفه بالنبوة والصدّيقية فقال عز من قائل: ﴿واذكرْ في الكتاب إدريسَ إنه كان صدّيقاً نبياً﴾.

نسبه عليه السلام:

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل.. وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليه السلام، واسمه عند العبرانيين (خنوخ) وفي الترجمة العربية (أُخنوخ) وهو من أجداد نوح عليه السلام، وقد زعم بعض المؤرخين أنه لم يكن قبل نوح بل في زمن بني إسرائيل، وهو زعم خاطىء ردّه الحافظ ابن كثير وغيره من المؤرخين الثقات.

مولده ونشأته:

إدريس عليه السلام هو أول بني آدم أعطي النبوة بعد (آدم) و(شيث) عليهما السلام، وذكر ابن إسحٰق أنه أول من خطّ بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم عليه

السلام ٣٠٨ سنوات لأنّ آدم عمّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة كما مرّ في قصته عليه السلام[١].

وقد اختلف العلماء في مولده ونشأته.. فقال بعضهم: إنّ إدريس ولد ببابل، وقال آخرون: إنه ولد بمصر، والصحيح الأول، وقد أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم. ولما كبر آتاه الله النبوّة، فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة (آدم) و (شيث) فأطاعه نفر قليل، وخالفه جمٌّ غفير، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم، فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل (بابل)؟ فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره، فخرج وخرجوا حتى وصلوا إلى أرض مصر فرأوا النيل فوقف على النيل وسبّح الله، وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الناس إلى الله وإلى مكارم الأخلاق.. !"[٢].

وقد كانت مدة إقامة «إدريس»[٣] عليه السلام في الأرض (٨٢) سنة ثمّ رفعه الله إليه كما قال تعالى: ﴿ورفعناهُ مكاناً عليّاً﴾.

وكانت له مواعظ وآداب، فقد دعا إلى دين الله، وإلى عبادة الخالق جلّ وعلا، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة، بالعمل الصالح في الدنيا، وحضّ على الزهد في هذه الدنيا الفانية الزائلة، وأمرهم بالصلاة والصيام والزكاة وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات وشدّد فيه أعظم تشديد، وقيل: إنه كان في زمانه ٧٢ لساناً يتكلم الناس بها، وقد علّمه الله تعالى منطقهم جميعاً ليعلّم كل فرقةٍ منهم بلسانهم كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومهِ ليُبيّنَ لهَم﴾. وهو أول من علّم السياسة

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/٩٩.

(٢) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٢٦.

(٣) انظر: قصته مفصّلة في تاريخ الطبري ١/١٧٢، قال: ويسمى «أُخْنُوخ» وهو إدريس عليه السلام، وانظر: البداية والنهاية ١/٩٤.

المـدنيّة، ورسم لقـومه قـواعد تمـدين المدن، فبنت كـل فرقـة من الأمم مـدنـاً في أرضها، وأنشئت في زمانه ١٨٨ مدينة.

وقد اشتهر بالحكمة.. فمن حكمه قولـه: (خير الـدنيا حسـرة، وشرّهـا ندم) وقوله: (السعيـد من نظر إلى نفسـه، وشفاعتـه عند ربـه أعمالـه الصالحـة) وقولـه: (الصبر مـع الإيمان يورث الظفر) إلى آخر حكمه الكثيرة التي اشتهر بها عليـه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

* * *

هـــودٌ عليـه السلام

ـ ٢ ـ

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

من سورة هود: الآية (٥٠)

ذُكر (هود) عليه السلام في القرآن الكريم سبع مرات، في عدد من السور الكريمة منها سورة الأعراف، وسورة الشعراء، وهناك سورة كاملة تسمى بسورة (هود). . وقد أرسله الله تعالى إلى قبيلةٍ عظيمة من العمالقة تدعى قبيلة (عاد) وفيهم يقول الله جل ثناؤه:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1].

و (عاد) هي من القبائل العربيّة البائدة، المتفرّعة من أولاد (سام بن نوح) وسميت بذلك نسبةً إلى أحد أجدادها وهو (عاد بن عوض بن أرم بن سام).

نسب هود:

هو (هود) عليه السلام بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن (عاد) جد القبيلة وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام، وهذا هو الذي اختاره ابن جرير، وقد ذكر (محمد بن إسحاق) نسباً يختلف عن هذا النسب، والصحيح ما ذكرناه وقد رجّحه الأستاذ (النجار) في كتابه قصص الأنبياء.

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٢٣ ـ ١٢٤).

مساكن عاد:

كانت مساكن (عاد) في أرض الأحقاف جهة اليمن، من جنوب شبه الجزيرة العربية، وتقع شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها (عُمَان) وموضع بلادهم اليوم رمال؛ ليس بها أنيس ولا سمير، بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، قال تعالى:

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

وعاد هم (عاد إرم) التي تسمى عاد الأولى، وأمّا عاد الثانية فمتأخرة، قال تعالى: ﴿وأنّهُ أهلكَ عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى﴾ وتسمى (عادَ إرم) لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وقد كانت هذه القبيلة من العمالقة أشدّاءَ أقوياءَ، وقد زادهم الله بسطةً في الجسم، وكانوا مترفين في الحياة، يبنون القصور الفخمة الشامخة، ويقيمون القلاع والحصون، وعندهم البساتين النضرة، والعيون الجارية، وقد غرقوا في النعيم، وانغمسوا في البذخ والترف، وقد قصّ القرآن الكريم ما كانوا عليه من مظاهر النعمة والترف فقال عزّ من قائل:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3].

وقد كانت أجسامهم قوية، وبنيتهم ضخمة متينة، وكانوا إذا مشوا على الأرض

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (٢١).

(٢) سورة الفجر: الآيات (٦ ــ ٨).

(٣) سورة الشعراء: الآيات (١٢٨ ــ ١٣٤).

تهتز الأرض تحت أقدامهم لثقلهم، كأنهم الجبال لفرط طولهم، وضخامة أجسادهم، فاغترّوا بقوتهم، واستكبروا على الله، وعتوا عن أمر رسله، وتمادوا في طغيانهم فأهلكهم الله بالريح العاتية كما قال تعالى:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

عبادتهم:

كان قوم (هود) عليه السلام أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، قال ابن كثير: وكانت لهم أصنام ثلاثة (صدا، وصمودا، وهرا)[2] وكانوا عرباً جفاةً، عتاةً كافرين متمرّدين على الله، وكان (هود) عليه السلام ينذرهم ويحذّرهم عذاب الله، ويضرب لهم المثل بقوم نوحٍ ويذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ويبيّن لهم أنه لا يطلب على نصيحته أجراً منهم، ولا يبتغي جزاءً ولا شكوراً، وكان منهم ناس قد عتوا عتواً كبيراً فقد قاوموا دعوته، وسفّهوا رأيه، وعزموا على الفتك به، ورموه بالسّفه والجنون، واتهموه بأنّ آلهتهم قد أصابته بسوء، وأنّ ما يهذي به إنما بسبب مسّ الآلهة له، قال تعالى حكاية عنهم:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾[3].

وقد أنذرهم (هود) عليه السلام عذاب الله، ولكنّهم بقوا على كفرهم وعنادهم.

---

(١) سورة فصلت: الآيتان (١٥ ــ ١٦).

(٢) البداية والنهاية ١/١٢١.

(٣) سورة هود: الآيات (٥٣ ــ ٥٥).

هلاك عاد:

لمّا طغت عاد وتمرّدت على نبيّ الله (هود) عليه السلام، و لم ينفعها التذكير والإنذار وتمادت في طريق العصيان، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، حتى اشتد عليهم الجهد والبلاء، فاستغاثوا واستنجدوا فأرسل الله عليهم سحاباً كثيفاً من السماء، فلمّا رأوا السحاب فرحوا واستبشروا وظنوا أنه مطر غزير، وأنّ الله قد تداركهم برحمته واستجاب دعاءهم حين استغاثوا، فلما أظلتهم السحابة رأوها سوداء قاتمة ففزعوا، ثمّ هبت عليهم الريح ــ وكانت ريحاً عقيماً ــ وسلّطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فأهلكهم الله وأبادهم، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية، ونجّى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ، وكان الذين هلكوا من قوم عاد قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق من أنفسهم ولا من ديارهم شبح ولا رسم، لأنّ الريح قد دمرّت كل شيء فلم تُبق عليهم ولم تذر، استمع إلى قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

وهذه الريح تسمّى (الريح العقيم) التي ذكرها الله في كتابه العزيز بقوله:

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾[2].

وقد سكن (هود) عليه السلام بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي حضرموت على بعد مرحلتين من مدينة (تريم)، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه مدفون في كثيبٍ أحمر وعند رأسه سَمُرة في حضرموت، ويزعم أهل فلسطين أنه مدفون عندهم، والصحيح ما ذكرناه[3]، والله أعلم.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان (٢٤ ــ ٢٥).

(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٤١ ــ ٤٢).

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/١٣٥.

صالحٌ عليه السلام

ـ ٣ ـ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

من سورة النمل: الآية (٤٥)

نسبه عليه السلام:

هو صالح بن عبيد بن آسف.. وينتهي نسبه إلى (سام بن نوح) وقد أرسله الله تعالى في قبيلةٍ من القبائل العربية البائدة وهي قبيلة (ثمود) وسميت بذلك نسبة إلى أحد أجدادها وهو (ثمود بن عامر) من أولاد سام بن نوح.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل (إسماعيل) عليه السلام (العربُ العاربة) وهم قبائل كثيرة منهم عاد، وثمود، وجرهم، ومدين، وقحطان... إلخ.

وأما العرب المستعربة فهم من نسل (إسماعيل) بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل عليه السلام أول من تكلّم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه (هاجر) في مكة المكرمة[1].

والمقصود أن قبيلة (ثمود) كانت قبل إسماعيل عليه السلام، وأنهم من العرب العاربة.

مساكن ثمود:

كانت مساكن ثمود بالحِجْر، ولذلك سمّاهم الله في القرآن الكريم (أصحاب الحجر) قال تعالى:

---

(١) البداية والنهاية ١/ ١٢٠.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

وأما الحِجر فهي تقع بين (الحجاز والشام) ويمرّ عليها المسافر بطريق البر، وتعرف الآن بـ (فجّ الناقة) وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن وتسمّى (مدائن صالح).

يقول المسعودي:

(ورممهم باقية، وآثارهم بادية، في طريق مَن ورد من الشام، وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مصاقبة لخليج العقبة) أيْ انها قريبة من خليج العقبة.

أصل قبيلة ثمود:

وقد اختلف المؤرخون في أصل ثمود وزمن وجودهم، فقال بعضهم: إنهم بقيّة من قوم (عاد)، وقال آخرون: إنهم بقيّة من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات، ويرى بعض المؤرخين من المستشرقين أنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين.. وهذا الرأي باطل لأن اليهود لم يُعْرفوا إلا بعد خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من أرض مصر فكيف يكونون يهوداً؟ وأصح الأقوال أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد، ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى على لسان نبيّه الكريم (صالح) عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول (ابن كثير) رحمه الله:

(وهم قبيلة مشهورة يقال لها (ثمود) باسم جدّهم ثمود أخي جديس، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، فلما نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود استقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها وطبخوا، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمرهم أن يريقوا القدور وأن يعلفوا العجين الإبل، وارتحل بهم حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال لهم ــ كما في الصحيحين ــ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلاّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم»[1].

وأما زمن وجود (ثمود) فلم يعلم بالضبط إلاّ أنهم كانوا بعد (عاد) كما أشارت الآية الكريمة، وقبل الميلاد وقبل زمن موسى عليه السلام قطعاً بدليل قول مؤمن آل فرعون يخوّف قومه عذاب الله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾. [غافر: ٣٠ ــ ٣١].

وممّن ردّ على دعوى المستشرقين ــ أن قبيلة (ثمود) من اليهود ــ الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء فارجع إليه إن شئت[2].

عبادة قوم ثمود:

كانت قبيلة (ثمود) تدين بعبادة الأوثان، وتكفر بالله الواحد الديَّان، فبعث الله إليهم سيدنا (صالح) عليه السلام، يذكّرهم بنعم الله، ويهديهم طريق الفوز والسعادة، وأنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم (عاد)، وأمرهم بالتقوى، ونهاهم

(١) رواه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٧٠ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٨٠.
(٢) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٥٩.

عن عبادة الأصنام فظلّوا متمادين في غوايتهم، عاكفين على عبادتهم الباطلة، وكانوا أهل خصبٍ ونعيم، لما لهم من الخيرات الوافرة، والجنات الزاهرة، والعيون الجارية، وقد ذكّرهم الله تعالى بهذه النعم بقوله:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[1].

فآمن به نفر قليل، وأكثرهم كذّبوه وكفروا برسالته، وعتَوا في طغيانهم عتواً كبيراً، وطلبوا منه معجزة تشهد بصدقه، فجاءهم بمعجزة (الناقة) وقد كانت آية عظيمة دالة على صدق (صالح) عليه السلام، حيث خرجت الناقة من صخر أصمّ، ورأوا بأعينهم كيف انفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة عشراء.

لماذا كانت الناقة معجزة؟

وقد كان لهذه الناقة بعض الأمور العجيبة الغريبة التي تدل بحق على صدق صالح عليه السلام وعلى أنها آية باهرة، ومعجزة ساطعة من عند الله تعالى منها:

أولاً: كونها خرجت من الصخر وهو حجر أصم من الجماد فكيف يخرج منه الحيوان؟.

ثانياً: كانت تشرب ماء القبيلة بأجمعه (لها شربٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم﴾ واستيفاء ناقةٍ لشرب أمة أمر عجيب.

ثالثاً: أنها كانت تعطي القبيلة من (الحليب) بقدر الماء الذي شربته وهذا أيضاً أمر عجيب.

قال (الإمام الرازي) رحمه الله: واعلم أن القرآن قد دلّ على أنّ في الناقة (آية) وأمّا أنها آية من أيّ الوجوه فهو غير مذكور قال تعالى: ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسّوهَا بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليم﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (١٤٦ ـ ١٤٩).

ولقد كانت هذه الآية المعجزة برهاناً ساطعاً على صدق نبيّ الله صالح عليه السلام، كما كانت بطلبٍ منهم حيث وعدوه باتباعه والإيمان به إن هو شقّ لهم الصخر وأخرج لهم منه ناقة.. يقول (ابن كثير): وقد ذكر المفسرون أن (ثمود) اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم صالح فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ووعظهم فقالوا له: إنْ أنتَ أخرجت لنا من هذه الصخرة ــ وأشاروا إلى صخرة عظيمة ــ ناقة عشراء (يعني حاملاً) يكون من أوصافها كذا وكذا نؤمن بك ونصدّقك، فأخذ عليهم نبيّ الله العهود والمواثيق على ذلك ثمّ قام إلى مصلاّه فصلى ودعا ربه عزّ وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأجاب الله دعاءه فانفطرت الصخرة عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب فلما عاينوها رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً فآمن بعضهم، واستمرّ أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ﴿وآتينا ثمود الناقةَ مبصرةً فظلموا بها﴾[1].

هلاك ثمود:

وقد حذّرهم (صالح) عليه السلام من التعرض للناقة بسوء، وأنذرهم عذاب الله إن هم أقدموا على قتلها: ﴿ولا تمسّوها بسوءٍ، فيأخذكم عذابُ يومٍ عظيمٍ﴾.

ولكنَّ النفوس العاتية التي لا تسمع موعظة، ولا تقبل نصيحة، والتي قد أعماها حب التمرد والطغيان، وأصمّ آذانها عن قبول دعوة الله، قد أبت إلا الإجرام، فأقدموا على عقر الناقة بغياً وعتواً:

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[2].

وقد قصّ الله علينا قصّتهم في سورة الشمس:

---

(١) البداية والنهاية بتصرف ١/١٣٤.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٧٧ ــ ٧٨).

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[1].

وكان أول من سطا على الناقة الشقيّ اللعين (قُدار بن سالف) فعقرها فسقطت على الأرض فابتدرها الرجال بأسيافهم يقطعونها وكانوا تسعة كما أخبر الله عز وجل:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

وقد همّوا بقتل نبي الله (صالح) عليه السلام بعد قتل الناقة لا سيّما بعد أن أنذرهم بعذاب الله وتوعّدهم به بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

فأرسل الله على أولئك النفر الذين قصدوا قتل (صالح) حجارة من السماء رضختهم ودمّرتهم قبل قومهم.

قال (ابن كثير): وأصبحت ثمود في اليوم الأول من موعد حلول العذاب وقد اصفرت وجوههم، ثم أصبحوا في اليوم الثاني وقد أحمرّت وجوههم، ثم أصبحوا في اليوم الثالث وقد اسودّت وجوههم كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما انتهت الأيام الثلاثة ومع شروق الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقّت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً هامدةً، لا أرواح فيها ولا حراك[3].

---

(١) سورة الشمس: الآيات (١١ ــ ١٥).

(٢) سورة النمل: الآية (٤٨).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١/١٣٦.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[1].

وقد كان هلاكهم بأنواع من العذاب (الصاعقة) التي دمّرتهم و (الصيحة) التي أخذتهم، و (الرجفة) التي زلزلت تحتهم الأرض حتى هلكوا عن بكرة أبيهم، وكل هذه الأنواع من العذاب قد أخبر عنه القرآن في الآيات الكريمة التالية:

أولاً: قال تعالى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

ثانياً: وقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[3].

ثالثاً: وقال تعالى:

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[4].

وأما (صالح) والذين آمنوا معه فقد نجوا ممّا حاق بقومهم من العذاب، الذي أدركهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم النكراء:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[5].

وقد كان الذين نجوا مع صالح (١٢٠) مائة وعشرين من المؤمنين، أما الهالكون فكانوا كثرةً كثيرةً، أهل خمسة آلاف بيت كما يذكر (الألوسي)، وقد عاش سيدنا (صالح) بعد ذلك إلى أن توفاه الله تعالى في نواحي الرملة من أراضي فلسطين على أشهر الأقوال[6].

---

(١) سورة الشمس: الآيتان (١٤ ــ ١٥).
(٢) سورة فصلت: الآية (١٧).
(٣) سورة القمر: الآية (٣١).
(٤) سورة الأعراف: الآيتان (٧٧ ــ ٧٨).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٩).
(٦) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٣٥.

لـــوط عليه السلام

- ٤ -

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

من سورة النمل: الآيتان (٥٤ ــ ٥٥)

لوط عليه السلام من الرسل الكرام، وقد ذكره الله تعالى في عديد من سور القرآن في (الأعراف، وهود، والحِجْر، والشعراء، والنمل) وغيرها من سور القرآن، وذكرت قصته مع قومه مفصّلة في بعض السور، ومجملة في البعض الآخر.

نسبه عليه السلام:

هو لوط بنُ هَارانَ، بن تَارح، يعني (آزر)... وهكذا إلى آخر نسب سيدنا (إبراهيم) عليه السلام، وقد بعثه الله في زمن إبراهيم الخليل، وهو ابن أخيه، وإبراهيم عمه لأنه قد تقدّم في قصة إبراهيم أن (إبراهيم، وهاران، وناحور) إخوة وكلهم أولاد آزر، ولوط هو ابن (هاران)، فيكون إبراهيم عمه، وقد آمن لوط بعمه إبراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم هاجر معه من العراق، وتبعه في جميع أسفاره، ثم أرسله الله تعالى إلى أهل (سَدُومَ) في دائرة الأردن، وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب، لأنه ليس من القبيلة، بخلاف (صالح) و(هود) و(شعيب) فقد كانوا من

العشيرة نفسها، ولعل التعبير بقوله تعالى: ﴿ولوطاً إذْ قالَ لقومِهِ﴾ يدل على ذلك حيث لم يذكر أنه أرسل منهم.

قوم لوط:

كان (لوط) عليه السلام قد نزح عن محلة عمّه الخليل إبراهيم عليه السلام بأمره وإذنه، فنزل بمدينة (سدوم) في أطراف شرق الأردن، وكان قومها من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم طوية، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

وقد ارتكبوا جريمةً من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض ألا وهي (إتيان الذكور) دون النساء، وقد حدثنا القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[1].

وكانوا لا يستقبحون قبيحاً، ولا يستترون من منكر، قد قست قلوبهم، وفسدت أخلاقهم، حتى كانوا يجاهرون باللواطة ولا يستحون، فبعث الله إليهم (لوطاً) عليه السلام، فدعاهم إلى الله وذكّرهم، ونهاهم وخوّفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا، فلمّا ألحّ عليهم هدّدوه بالطرد والإخراج من بين أظهرهم:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[2].

كما قرّروا طرده وطرد من آمن معه لا لشيء إلّا لأنهم أناس يتطهرون، ولا يرتكبون الجرائم التي كان يرتكبها أولئك القوم الضالّون:

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٥ ـ ١٦٦).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٦٧).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

وهذا منتهى السفه وقلة العقل والتفكير.

يا لله!! متى كان اجتناب الرذائل والقبائح يعتبر جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان بالطرد والحرمان؟!.

ومتى كان الشريف الطاهر مجرماً ينبغي تهجيره وإخراجه من الأوطان حتى يقول المجرمون المعتدون:

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وما هو السبب في هذا الطرد والإبعاد؟ إنهم لا يستحون أن يقولوا بملء أفواههم: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾. فالعفة والطهارة، وعدم التلوث بالقاذورات، وخاصة (اللواطة) تعتبر في نظر أولئك الأشقياء جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان. ولا عجب، فذلك منطق «الطغيان» في كل عصر وزمان ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

قصة الملائكة (ضيوف لوط):

وحين أراد الله عزّ وجل إهلاك أولئك الخبثاء الأشرار، من قوم لوط، الذين كانوا أرذل وأخبث أمةٍ في ذلك الحين، أرسل إليهم الملائكة ليقلبوا عاليها سافلها، وكانت لهم قرى خمسة، ويزيد عددهم على (٤٠٠) أربعمئة ألف كما يذكر ذلك المؤرخون.

فمرّوا في طريقهم على (إبراهيم) الخليل، فبشروه بغلام حليم، وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين هم أهل (سدوم وعامورة) وأنّ الله قد أمرهم بإهلاك جميع أهل القرى، الذين كانوا يعملون الخبائث، فتخوّف (إبراهيم) على ابن أخيه (لوط) إذا قلبت بهم الأرض أن يكون ضمن الهالكين، فأخذ يناقشهم

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

ويجادلهم، وقال لهم: إنّ فيها لوطاً، فأخبروه بأنّ الله سينجيّه وأهله ومن معه من المؤمنين، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1].

خرج الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا إلى (لوط) فدخلوا عليه في صورة شباب مرد حسان، تشرق وجوههم بنضارة الشباب والجمال، ولم يخبروه بحقيقتهم، فظنّ أنهم ضيوف جاءوا يستضيفونه، فرحّب بهم، ولكنه اغتمّ من دخولهم عليه في وقت الظهيرة، لأنه خاف عليهم من أولئك المجرمين الأشرار لا سيما وأنهم في منتهى الحسن والجمال، ووقع في نفسه أنه لا بدّ أن يكون قد رآهم أحد من قومه حين دخلوا عليه، فلا بدّ أن يمسّوهم بأذى، لذلك فقد أشفق عليهم، وخاف من قومه أن يسمعوا بقدومهم، فيعتدوا عليهم بالفتك في أعراضهم، وهناك أخذ يفكّر ماذا سيصنع لو أراد المجرمون أن يعتدوا على ضيوفه؟ وسرعان ما وقع ما كان يخشاه فقد أقبل رجال القرية من قوم لوط، يريدون أن يتحرشوا بأولئك الضيوف، وأخذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى ويناقشهم باللطف واللين، لعل فيهم من يرتدع عن غيّه وضلاله، ويخجل عن خزايته في ضيفه، ودعاهم إلى أن يتزوجوا من نساء القرية فإنّ ذلك أكرم وأفضل، وأشرف وأطهر.. ولكن (الخبثاء) صارحوه بغرضهم السيء وأنهم لا يرغبون إلّا في أولئك الشباب المرد الحسان، فازداد همّه وغمّه وشعر الملائكة بذلك فأخبروه بحقيقة الأمر وأنهم ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمرٍ من الله لأن أهلها كانوا ظالمين، اقرأ هذه الآيات الكريمة:

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان (٣١ ـ ٣٢).

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾[1].

أخبروه بحقيقتهم وبمهمتهم التي جاءوا من أجلها، وبأنّ القوم لن يستطيعوا الوصول إليها، وأمروه أن يخرج من أرض قومه مع أهله ليلاً قبل طلوع الصبح لأن موعد إهلاكهم سيكون في وقت الصبح، وسيكون ذلك الوقت موعد تدميرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم ﴿إنّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟﴾.

هلاك قوم لوط:

اطمأنّ (لوط) عليه السلام على ضيوفه، وترك قومه في ضجيجهم وجدالهم وأخذ يستعدّ للخروج من القرية قبل أن يدركه الصباح، وحين هجم القوم على بيت لوط ليأخذوا الضيوف بالقوة طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[2].

وما أن أشرقت الشمس حتى كانت القرى بمن فيها خراباً يباباً فأهلكهم الله بأنواع من العذاب وجعلهم عبرةً للمعتبرين:

١ ــ قَلَبَ بهم القرى فجعل عاليها سافلها.

٢ ــ أرسل عليهم صيحةً من السماء.

٣ ــ أمطر عليهم حجارة من سجّيل منضود.

---

(١) سورة هود: الآيات (٧٧ ــ ٨١).

(٢) سورة القمر: الآية (٣٧).

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[2].

زوجة لوط مع الهالكين:

وقد هلكت زوجة (لوط) مع الهالكين لأنها لم تكن مؤمنة بالله، فحلّ بها من السخط والعذاب ما حلّ بهم، ولم ينفعها أنها زوجة نبيّ فإنّ الله قد أوعد بإهلاك الكافرين، قال تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[3].

قال السهيلي: واسم امرأة لوط (والهة). وقد نجا (لوط) عليه السلام مع ابنتيه من الهلاك.

ويقول بعض المؤرخين: إنّ البحر الميّت، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وإنما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمئة متر، وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت.

ويقول (ابن كثير) رحمه الله:

(وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنةً لا يُنتفع بمائها ولا بما حولها من

---

(١) سورة هود: الآية (٨٢).

(٢) سورة الحجر: الآيتان (٧٣ ــ ٧٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٣).

الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومَثَلة، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزّته في انتقامه ممن خالف أمره وكذّب رسله واتّبع هواه وعصى مولاه)[1].

مسألة هامة:

قد يتساءل المرء هل تخون امرأة النبيّ زوجها؟ وهل تقع منها جريمة الزنى؟؟ فكيف أخبر الله عن زوجتي (نوح ولوط) أنهما خانتا أزواجهما؟؟.

والجواب: أن هذا أمر مستحيل لا يمكن أن يقع لأنّ الله عزّ وجل قد حفظ الأنبياء من تلوث العرض، ومن وقوع أزواجهن بالفاحشة، لأن ذلك يؤذي سمعة الأنبياء الأطهار، ولهذا قال (ابن عباس): ما بغت امرأة نبيّ قط، وهذا هو مذهب أئمة السلف والخلف.

وأمّا الكفر منهنّ فقد يقع، فقد كانت زوجة (لوط) كافرة، كما كانت زوجة (نوح) كافرة أيضاً، وقد ضرب الله المثل بهما قال تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[2].

والمراد بالخيانة هنا (الخيانة في الدين) حيث لم تؤمنا بالله، قال ابن كثير: فخانتاهما، أي: في الدين فلم تتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة، حاشا وكلّا، فإنّ الله لا يقدّر على نبيّ أن تبغي امرأته، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً[3].

* * *

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٢٣.

(٢) سورة التحريم: الآية (١٠).

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٨٢.

إسماعيلُ عليه السلام

ـ ٥ ـ

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾.

من سورة مريم: الآية (٥٤)

نسبه عليه السلام:

هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، وأمه (هاجر)، وهو البكر من أولاد إبراهيم الذي أمر إبراهيم بذبحه في المنام كما تقدمت قصته فيما سبق، وهو جدّ الرسول الأعظم إذ إن الرسول ﷺ هو من نسل إسماعيل بن إبراهيم، عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

رسالته عليه السلام:

الراجح من التاريخ أن الله قد أرسل (إسماعيل) عليه السلام إلى القبائل العربية التي عاش عليه السلام في وسطها، وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ الله قد أرسله إلى قبائل اليمن، وإلى العماليق الذين كانوا يسكنون في تلك الجهات وقد تقدّم أنّ (إسماعيل) عليه السلام قد تربّى في الحجر بجانب البيت العتيق في مكة المكرمة. وأنه نشأ هناك وتزوج من قبيلة (جرهم) فالظاهر إذاً من تاريخ حياته أنّ بعثته كانت لنفس العرب الذين عاش بينهم صلوات الله عليه.

حياته عليه السلام:

تقدم معنا في قصة إبراهيم عليه السلام أنه قد دعا ربه أن يرزقه ولداً صالحاً

obeikandl.com

فاستجاب الله دعاءه ورزقه هذا الغلام اليافع: (إسماعيل) عليه السلام، وقد ولد من أَمَته «هاجر» لما بلغ إبراهيم من العمر ٨٧ سنة، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1].

و (هاجر) كانت أمة مملوكة لـ (سارة) وهبها له ملك مصر الجبار، فوهبتها سارة لإبراهيم لعل الله أن يرزقه منها بولد، إذ كانت هي حتى ذلك التاريخ (عقيماً) لا تلد، إلا أنها ولدت بعد ذلك بإسحاق، ببشارة الملائكة الأطهار لإبراهيم عليه السلام كما تقدم معنا عند ذكر قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وإسماعيل هو (الذبيح) كما أثبتنا ذلك في قصة إبراهيم، ونزيد هنا كلمة لطيفة للأستاذ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» وفي هذه الكلمة إثبات آخر على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق. قال: (ودليلي على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها، إذ إن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد ـ! أي الذي ليس له سواه ـ إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد، يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدلّ على امتثال الأمر ونهاية الطاعة، وهذا هو الإسلام بعينه، وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد وعمر إسماعيل نحو ١٤ سنة ـ كما هو صريح في التوراة ـ وبقي إسماعيل إلى أن مات إبراهيم، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه. وأيضاً فإنّ ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل، وكذا فإن مسألة الذبح وقعت في مكة، وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إلى مكة رضيعاً لا إسحاق[2]، والله أعلم.

أولاد إسماعيل:

ولد لإسماعيل عليه السلام اثنا عشراً ولداً ذكراً، وهم كلهم رؤساء قبائل،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٩).

(٢) قصص الأنبياء للنجار ص ١٠٣.

وقد ذكرت التوراة أسماءهم، كما ولدت له بنت زوّجها لابن أخيه (العيص بن إسحاق) ومن نسل إسماعيل جاء العرب الذين يعرفون بـ (العرب المستعربة) ثمّ كانت خاتمة المطاف بولادة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين من نسل إسماعيل بن إبراهيم.

وفاته عليه السلام:

عاش إسماعيل عليه السلام (١٣٧) سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه (هاجر) في الحِجر على المشهور من أقوال المؤرخين، وتذكر التوراة أنه مات بأرض فلسطين ودفن فيها، والصحيح ما عليه مؤرخو العرب من أنه مات بمكة ودفن فيها، والله أعلم.

* * *

obeikandl.com

إسحـــاق عليـه السلام

ـ ٦ ـ

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

من سورة الصافات: الآيتان (١١٢ ـ ١١٣)

نسبه عليه السلام:

هو إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام وأمه (سارة) وهو الولد الثاني لإبراهيم الذي بشّرت به الملائكة الأطهار خليل الرحمن، ومن نسله جاء أنبياء بني إسرائيل، حيث إن النبوّة قد كانت في ذرية إبراهيم في ولديه «إسماعيل وإسحٰق» كما قال تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوةَ والكتابَ﴾ وسيأتي تفصيل لهذا إن شاء الله تعالى.

رسالته عليه السلام:

يترجح أن (إسحٰق) قد أُرسل إلى الكنعانيين في تلك الأراضي التي كانوا يسكنونها وهي (بلاد الشام وفلسطين) في البيئة التي عاش فيها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، فكانت رسالة إسحٰق إلى هؤلاء الأقوام الذين عاش بينهم عليه السلام.

حياة إسحٰق عليه السلام:

لمّا بلغ إبراهيم من العمر (١٠٠) مائة سنة ولدت له زوجته (سارة) المرأة العجوز العقيم إسحٰق عليه السلام، بعد ما جاءته البشارة من الله تعالى بواسطة

الملائكة الأبرار، كما قال تعالى في سورة هود:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[1].

وقد أوصى إبراهيم ابنه إسحق ألاّ يتزوج إلاّ امرأة من أهل أبيه فتزوج إسحق عليه السلام (رفقة) بنت ابن عمه وقد أنجب منها ولدين (العيص) ويسمّيه أهل الكتاب (عيسو) والثاني (يعقوب) عليه السلام وهو المسمّى (إسرائيل) وإليه ينتسب اليهود من بني إسرائيل.

وفاته عليه السلام:

عاش إسحق عليه السلام (١٨٠) سنة، ومات في أرض الكنعانيين، ودفن في الخليل (حبرون) في المغارة التي دفن فيها أبوه إبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم[2].

* * *

(١) سورة هود: الآيات (٧١ ــ ٧٣).

(٢) انظر كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٣١٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١/١٨٠ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/١٢٣.

يعقوبُ عليه السلام

ـ ٧ ـ

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾. من سورة مريم: الآيتان (٤٩ ـ ٥٠)

نسب يعقوب عليه السلام:

هو يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام، وأمه (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور بن آزر الذي يسمّيه المؤرخون (تارح). وناحور هو أخو إبراهيم عليه السلام. و (يعقوب) عليه السلام هو أبو الأسباط الإثني عشر، وإليه يُنسب شعب بني إسرائيل ويسمّى يعقوب «إسرائيل» كما قال تقدّست أسماؤه:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سمّاه (إسرائيل) ومعناه في العبرية «روح الله»، والمقصود هنا أن نعلم أنّ (إسرائيل) هو اسم يعقوب عليه السلام، كما وضّحنا وإليه ينتسب اليهود.

حياة يعقوب عليه السلام:

ذكر المؤرخون أن (يعقوب) عليه السلام قد ولد في أرض الكنعانيين (فلسطين) وشبّ في كنف أبيه إسحٰق، وقد أمرته أمه (رفقة) أن يسافر إلى خاله (لابان) في (فدان آرام) من أرض بابل بالعراق ويقيم عنده، لأنها خافت عليه من

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٣).

أخيه (العيص) أن يبطش بـه لأن أخاه كـان قد تـوعّده، فخـرج يعقوب عليـه السلام يريد خاله فأدركه المساء في موضـع فنام فيه، فرأى في نومه الملائكة يصعدون إلى السماء وينزلون. ورأى الرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: (إني سأبارك عليـك، وأُكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعـدك) فلما هبّ من نـومه فـرح بمـا رأى ونذر أن يبنـي لله تعـالى (معبداً) في ذلـك المـوضـع الـذي رأى فيـه تلك الـرؤيا السـارة، فعمـد إلىٰ حجـر فصبغـه بـدهن ليتعـرف بـه المكـان وسمّى ذلـك الموضـع (بيت إيل) أي بيت الله وهو موضـع بيت المقدس اليوم الـذي بناه يعقـوب بعد ذلك. ثم تابـع سفره فلمـا وصل إلى خـاله في أرض العـراق وجد عنـده ابنتين هما (لَيْئَة) ويقال (ليّا) بالتسهيل وهي الكبـرى، و (راحيل) وهي الصغـرى، فخطب يعقوب من خاله ابنته الصغرى (راحيل) وكـانت أحسنهما وأجملهمـا، فوافقـه خالـه مقابل أن يخدمه سبـع سنين يرعى له غنمـه، فلما مضت المـدّة صنـع خالـه طعامـاً وجمـع الناس عليه وزفّ إليه ليلاً ابنتـه الكبرى (ليئـة) وكانت ضعيفـة العينين قبيحة المنـظر، فلمّا أصبـح يعقـوب إذا هي (ليئة) فقـال لخالـه لم غـدرت بـي وأنـا إنمـا خطبت (راحيل) فقال له: إنه ليس من سنّتنا أن نـزوّج الصغرى قبـل الكبرى، فـإن أحببت أختها فارعَ لي الغنم سبـع سنين أخرى وأزوجك (راحيل) فعمل سبـع سنين أخـرى فـزّوجـه إيـاهـا، وجمـع لـه بين الأختين، ولم يكن الجمـع بين الأختين في شريعتهم محرماً، ثم نسـخ في شريعة التوراة كما هو الحال في الشريعة الإسلامية[1].

ووهب (لابان) لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب (زلفى) لابنته ليئـة، ووهب (بلها) لابنته راحيل فوهبت كل منهما جاريتها ليعقوب فأصبـح عنده أربـع نسوة وقد ولدن له أولاده الاثني عشر، الذين يُسمون بالأسباط.

أما (ليئة) فقد ولدت له ستة أولاد وهم:

(١ ــ روبيـل، ٢ ــ شمعون. ٣ ــ لاوي. ٤ ــ يهـوذا. ٥ ــ ايسـاخـر. ٦ ــ زابلون) وروبيل هو أكبـر أولاده، ولاوي جاء من نسله مـوسى عليه السـلام، وكلمة

(١) انظر تاريـخ الطبري ١/ ٣٢٠ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٨٢.

يهود أخذت من يهوذا أحد أبناء يعقوب عليه السلام.

وأمّا (راحيل) فقد ولدت له ولدين وهما:

١ ــ يوسف الصدّيق عليه السلام. ٢ ــ وبنيامين.

وأمّا (بلهة) جارية راحيل فقد ولدت له ولدين وهما:

(١ ــ دان. ٢ ــ نفتالي).

وأمّا (زلفى) جارية ليئة فقد ولدت له ولدين أيضاً وهما:

(١ ــ جاد. ٢ ــ أشير) فأصبح أولاد يعقوب عليه السلام اثني عشر: ستة من ليئة، واثنان من راحيل، واثنان من بلهة، واثنان من زلفى، وهؤلاء كلهم إخوة يوسف الصديق الذي رأى في منامه أحدعشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين كما سيأتي قريباً في قصته عليه السلام.

وقد أصبح كل واحد من أولاده يعقوب أباً لسبط من أسباط بني إسرائيل، ويقول المؤرخون: إن كل أولاده قد ولدوا له وهو في العراق، حين كان عند خاله يرعى له الغنم إلاّ (بنيامين) فقد ولد له بعد أن رجع يعقوب إلى وطنه في أرض الكنعانيين في فلسطين.

وفاته عليه السلام:

فقد يعقوب عليه السلام بصره حزناً على ولده (يوسف) الذي مكر به إخوته ثمّ ردّ الله إليه بصره بعد أن اجتمع به بعد طول غياب وشدة حزن وألم كما قال تعالى: ﴿ فلما أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدّ بصيراً﴾ وقد اجتمع به في مصر. وتوفي يعقوب عليه السلام بعد أن بلغ من العمر ١٤٧ سنة، وقد كان ذلك بعد ١٧ عاماً من اجتماعه بولده الحبيب يوسف عليه السلام، وقد أوصى يعقوب ابنه يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحٰق ففعل ذلك وسار به إلى فلسطين ودفنه عند أبيه في المغرة بحبرون (مدينة الخليل)[1] صلوات الله عليهم أجمعين.

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٣٢٤ والكامل لابن الأثير ١/٧٢.

يوسف عليه السلام

ـ ٨ ـ

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

من سورة يوسف: الآية (٢٢)

نسبه عليه السلام:

هو (يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم) وقد ذكره الله تعالى في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وأثنى عليه بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

ووصفه بالعفة والنزاهة، والصبر والاستقامة، كما أثنى عليه رسول الله ﷺ بقوله:

«إنّ الكريم بنَ الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم»[2].

ذِكره في القرآن:

ذكر اسم يوسف في القرآن الكريم في ٢٦ آية، منها ٢٤ آية في سورة يوسف

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٤).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/٣٦١.

وآية في الأنعام وآية في سورة المؤمن (غافر)، وقد وصفه الله تعالى بالصدّيقية ولهذا يسمى (يوسف الصديق) قال تعالى:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ. . .﴾[1] الآية.

وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، ومن سلالة النبوة، ومن أشهر أنبياء بني إسرائيل، وقد أُرسل إليهم كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا. . .﴾ الآية[2].

وله سورة ذكرت فيها قصته بالتفصيل وهي من طوال سورة القرآن تسمى (سورة يوسف) وفيها بيان لحياته عليه السلام، ومحنته مع إخوته، ومحنته مع امرأة العزيز، ودخوله السجن، ودعوته فيه إلى الله، ثم خروجه من السجن وتعبيره الرؤيا للملك، واستلامه لخزائن الأرض، ثم مجيء إخوته إلى مصر بسبب القحط، واحتيال يوسف لإبقاء أخيه (بنيامين) عنده، ثم التعرف على أبيه وإخوته، ودخولهم عليه وسجودهم له، حسب الرؤيا التي رآها في صغره، إلى غير ما هنالك من إشارات دقيقة، وعظات بالغة، من حياة هذا النبي الكريم.

من هم الأسباط:

قدّمنا أن (يعقوب) عليه السلام ولد له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً، وإلى هؤلاء الأبناء تنسب أسباط بني إسرائيل، فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب، وكان أشرفهم وأفضلَهم وأعظمَهم (يوسفُ) عليه السلام، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن في أولاد يعقوب نبيّ غيره، وأن جميع

---

(١) سورة يوسف: الآية (٤٦).

(٢) سورة غافر: الآية (٣٤).

إخوة يوسف لم يوح إلى واحد منهم، وقد أيّد (ابن كثير) رحمه الله هذا الرأي فقال ما نصه: (وظاهر ما ذُكر من فعالهم ومقالهم، في هذه القصة، يدل على هذا القول، ومن استدل على نبوتهم بقوله تعالى:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[1].

وزعم أنّ هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقويّ، لأنّ المراد بالأسباط (شعوب بني إسرائيل) وكان يوجد فيهم من الأنبياء، الذين نزل عليهم الوحي من السماء، ومما يؤيد أنّ (يوسف) عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوّة أنّه لم ينص على واحد من إخوته سواه، فدل بذلك على ما ذكرناه)[2].

رؤيا يوسف الصدّيق عليه السلام:

ذكر المفسّرون أن يوسف عليه السلام رأى في المنام وهو صغير لم يحتلم بعد رؤيا عجيبة غريبة، رأى في نومه أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر قد سجدوا له، فهاله ذلك الأمر، واستعظم تلك الرؤيا، فلمّا استيقظ قصّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سيكون لابنه شأن عظيم، وسينال رتبة عالية، ورفعة سامية، في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وأمه وجميع إخوته فيها، فأمره بكتمانها، وألّا يقصها على إخوته، خوفاً عليه منهم، لئلا يحسدوه ويكيدوا له ويدبروا له أنواع المكائد، فإنّ في طبيعة الإنسان الكيد والحسد، ولهذا أوصى يعقوب ابنه بكتمان السر لهذه الرؤيا، وقد جاء في الأثر: (استعينُوا على قضاء حوائجكم بالكتمانِ، فإنّ كلّ ذي نعمةٍ محسودٌ).

قال تعالى إشارة إلى هذه الرؤيا:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٦).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤١.

سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1].

والظاهر من النص القرآني أنّ يوسف عليه السلام قد قصّ الرؤيا على والده في غيبة إخوته، وأنّ أباه قد أوصاه بعدم إخبار إخوته بما رأى، وعبارة التوراة تفيد أنّ ذلك كان بحضرة إخوته، وأنّ أباه انتهره على هذا القول قائلاً: لعلّنا نسجد لك أنا وأمك وإخوتك، قالها متهكّماً... وهذا الذيْ ذكر في التوراة خطأ، لأنّ التوراة محرفة قطعاً، والصحيحُ ما ذكر في القرآن الكريم ﴿الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

حبّ يعقوب ليوسف:

كان يعقوب عليه السلام يحب من أولاده (يوسف) ويؤثره هو وأخاه (بنيامين) على بقية أولاده في المحبة والقرب، فكان ذلك سبباً لحسد إخوته وحقدهم على يوسف وأخيه، وهم في حداثة السن والشباب، فأضمروا له الشرّ وطلبوا من أبيهم أن يسمح لهم باصطحاب يوسف، ليلهو ويلعب معهم في البرية، وقد كان يعزّ ذلك على نفس يعقوب، فهو لا يستطيع فراقه، ويخشى عليه منهم لذلك تعلّل لهم بقوله: ﴿إني لَيَحْزُنُني أنْ تذهبُوا بهِ، وأخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنهُ غافلون﴾ وهو عليه السلام يتخوف عليه عدوانهم أكثر ممّا يتخوف عليه عدوان الذئب، ولكنّه أراد أن يصرفهم عنه بتلك التعِلّة، ولكنّ إخوته كانوا بارعين في الدهاء فقالوا لأبيهم: ﴿لِئنْ أكلهُ الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنّا إذاً لخاسِرونَ﴾.

إلقاء يوسف في الجب:

لم يجد يعقوب بدّاً أن يرسل يوسف مع إخوته، لئلا يشعروا بأنّ أباه يخشى عليه منهم، فيدبّروا له مكيدة في غيابه، فتظاهر بقبول كلامهم وأرسله معهم على كره ومضض، وما أن غابوا به عن عينيه حتى جعلوا يشتمونه ويضربونه ويهينونه

(١) سورة يوسف: الآيتان (٤ ــ ٥).

بسيىء الكلام وقبيح المقال، ثم أجمعوا على إلقائه في غيابة الجب (أي في قعره) وكانت قليلة الماء، فلمّا ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد من فرج ومخرج من هذه الشدة والضيق، ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا، في وقت يكون لك فيه العزة والسيادة عليهم وهم لا يعلمون أمرك، كما قال سبحانه:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مرت سيارة (قافلة) فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في الجب فتعلق به يوسف، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء، فإذا غلام جميل الصورة، وسيم الخَلق، قد تعلّق بها فاستبشر الرجل وقال: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ وأسروه بضاعة حتى وصلوا إلى مصر، فباعوه على أنه عبد رقيق فاشتراه عزيز مصر واسمه (قطفير) من القافلة بثمن رخيص، واحتلّ عنده مكاناً حسناً بسبب أمانته، وحسن خلقه، وصدقه ونزاهته، وكان ذلك على وجه التقريب سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد. . أما إخوة يوسف فقد رجعوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف قد لطخوه بدم شاة ذبحوها ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله، ولكنهم نسوا أن يخرقوا القميص ــ وآفة الكذب النسيان ــ فلم يفلحوا في هذا المكر، قال الله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قال بعض السلف: (لا يغرنك بكاءُ المتظلّم، فربّ ظالمٍ وهو باكٍ كما فعل إخوةُ يوسف حين جاءوا أباهم عشاء يبكون) وروي أنّ (يعقوب) عليه السلام لمَّا أتوه بقميص يوسف ملطَّخاً بالدم جعل يقلّبه وينظر فيه ويقول: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني دون أن يمزّق ثوبه!! يقول ذلك تعريضاً بكذبهم وإيذاناً لهم بأنَّ صنيعهم ومكرهم لم يرج على أبيهم:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

محنة يوسف مع امرأة العزيز:

أقام يوسف الصدّيق في بيت عزيز مصر، منعّماً مكرّماً، وكان فائق الحسن والجمال، فلمّا شبّ وكبر، عشقته امرأة العزيز «زوجة سيِّده» وشغُفِت به حباً ودعته إلى نفسها، وكان ذلك بداية المحنة الثانية له، أما المحنة الأولى فقد كانت عندما حسده إخوته ورموه في الجب، ولقد كان يوسف طاهر النفس عفيف الخُلق، مستقيم السيرة، ولذلك استعصى على تلك الفتنة العارمة، ووقف في وجه الشهوة والإغراء موقف المؤمن الحازم لأمرين اثنين:

أولهما: الإيمان بالله الذي غمر قلبه، والسيرة العطرة التي نشأ عليها في حجر أبيه وجدّه، فإنهم جميعاً منتمون إلى بيت النبوّة.

ثانيهما: أن زوجها هو سيّدهُ الذي أحسن إليه، وأكرم مثواه، وائتمنه على ماله وعرضه، فكيف يخونه؟ قال تعالى:

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز فأرادت أن تحمله على الاتصال بها بالقوة، فغلّقت الأبواب، وأحكمت الخطة، ودعته صراحة إلى نفسها، ولكنّه امتنع وأبى، وأصرّ على العصيان لأمرها. وغلبها الحب على حيائها، واستطارت الشهوة في نفسها فأمسكت به تريد أن تجبره على مواقعتها، ولكنّ خوفه من الله عصمه عن ذلك فتجاذبا، وأخيراً أفلت من يدها وأمسكت بثوبه من خلف فتمزق الثوب، وظلت تلاحقه وهما يستبقان الباب، هو يريد فتحه هرباً، وهي تحول بينه وبين الباب طلباً، لتقضي منه لبانتها، وفي هذه اللحظة كان قد وصل زوجها فوجدهما في هذه الحالة المريبة.. وهنا يبدأ الكيد الخبيث والمكر المدبّر فتنطلق صارخة باكية لتظهر أمام زوجها بالبراءة، زاعمة أن يوسف راودها عن نفسها، فامتنعت منه، وأنه قد عزم على عمل الفاحشة معها فهربت منه، وفي لمحة عين يصبح الطالب مطلوباً،

والظالم مظلوماً، وتصبح العقوبة واجبة لمن أراد أن يخون شرف سيّده، ويهتك عرضه، وحقاً إنّه الكيد والمكر والدهاء، استمع إلى قوله تعالى:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

شهادة صادقة، وحجة مقنعة، شهد بها طفل من أقربائها، أنطقه الله بها لتكون براءة ليوسف الصديق، وبرهاناً على عفته ونزاهته، وليتخلص الصدّيق من العقوبة الشديدة التي أرادتها له امرأة العزيز، وخلاصة الشهادة كما يلي:

إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعة فلا بدّ أن يُشق ثوبه من أمام لأنه يريدها وهي تدفعه عن نفسها، فالمنطق السويّ أن يكون الشق من الأمام، وإن كان يوسف هو الهارب وهي الطالبة فلا بد أن يُشقّ ثوبه من خلف:

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

شيوع الخبر في المدينة:

شاع الخبر في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنة النساء تلوك في امرأة العزيز، استهجاناً ولوماً لها على صنعها، كيف تعشق سيّدةٌ عبدَها؟ وكيف تهوى وتحبّ خادمها؟ وبلغ ذلك امرأة العزيز، فأرسلت إلى صديقاتها العاذلات، من ذوات الثراء والجاه، ودبّرت لهن مكيدة حتى يعذرنها في الحب والغرام، هيأت لهن مكاناً يجلسن فيه، وقدمت إليهنّ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين، وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر، وفي تلك اللحظة أمرته أن يخرج عليهنّ، فبهرهنّ جماله، وألهاهنّ حسنه وتشاغلن عما في أيديهنّ فصرن يقطعن أيديهن ولم يشعرن في تلكَ اللذة الغامرة بألم جراحة الأصابع حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهنّ يحسبن

أنهن يقطعن الفاكهة، والعقلُ غارق والبصر شارد في الاستمتاع بجمال يوسف، والتأمل في محاسنه، ثم لم يمنعهم العتب والعذل إلّا أن يُعلنّ إكبارهنّ لذلك الجمال الفائق قائلات:

﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

وهنا باحت امرأة العزيز بسرّ عشقها له، بعد أن أوقعتهنّ في شباكِ غرامه، فقالت معاتبة لهنَّ:

﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

لقد كانت العدالة تقضي بأن يكرّم يوسف على نزاهته وعفته، وأن تعاقب العزيز على جنايتها وما اجترحته يدها، ولكنّ الأمر كان بالعكس فقد قُدّم يوسف البريء التقي الطاهر، فدية لسمعة تلك التي استهانت بكرامتها وكرامة زوجها وأرادت أن تلحق به عار الخيانة، فبرّئت تلك المرأة وأدين يوسف، وحكم عليه بالسجن، فمكث في السجن سنوات عديدة تبلغ سبعاً، كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

دخل يوسف السجن على غير جريمة اقترفها، ودخل معه السجن فتيان: أحدهما رئيس سقاة الملك، والثاني رئيس الخبّازين، فرأى كل منهما حُلُماً وعرضه على يوسف، أمّا رئيس السقاة فقد رأى أنّه يعصر في كأس الملك الخمر، وأما الثاني فقد رأى أنه يحمل فوق رأسه طبقاً من الخبز، والطير تأكل من ذلك الخبز، وطلبا منه أن يخبر كل واحد منهما بتفسير رؤياه، فقال للأول: إنك ستخرج من السجن وتعود إلى عملك فتسقي الملك خمراً.. وقال للثاني: إنّك ستصلب وتأكل الطير من رأسك، وكان الأمر كما أخبر يوسف الصديق عليه السلام.

رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن:

بعد تلك السنين الشديدة التي مرت على يوسف وهو في السجن جاء الفرج من الله، فقد رأى الملك في نومه رؤيا عجيبة غريبة، رأى سبع بقرات جميلات قد

خرجت من النهر، وأخذت ترتع في روضة، ثم رأى سبع بقرات عجافاً هزيلة قبيحة المنظر قد خرجت من النهر وأكلت البقرات السمينة، كما رأى سبع سنابل خضراء حسنة، قد عَدَت عليها سبع سنابل يابسة فأكلتها، فاستيقظ الملك فزعاً من رؤياه، وطلب من السحرة والعلماء تأويلاً لها، فلم يجد جواباً شافياً، وهناك تذكّر ساقي الملك قدرة يوسف على تأويل الأحلام، فطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين، فذهب إلى يوسف وقصّ عليه رؤيا الملك، فأخبره بتعبيرها على الوجه الدقيق، قال له يوسف: إنّ البلاد ستمر عليها سبع سنوات فيها الخيرات تجود فيها الأرض بالغلّات الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة. تأكل الأخضر واليابس، وأنّ عليهم أن يقتصدوا من سنيّ الرخاء إلى سني الجدب والقحط، وقد أُعجب الملك بتأويل يوسف غاية الإعجاب، فأمر بإخراجه من السجن، ليجعله من خاصته المقربين ويسلّمه إحدى وزارات الدولة، ولكنّ يوسف أبى أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين، حتى يُقرَّ خصومه ببراءته، فتُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة، ويشهد الناس بنزاهته، وذلك هو منتهى العزة النفسية والكرامة النبوية، ولنستمع إلى الآيات البينات:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وقصةُ يوسف طويلة وقد فصّلها القرآن أجمل تفصيل، وذكر في النهاية أن أباه وأمه وجميع إخوته قد جاؤوا إلى مصر ودخلوا عليه وهو في عزّ وسلطان وجاهٍ عظيم، فسجدوا له سجود «تحية وتكريم» وذكّرَ أباه بما رأى وهو صغير حيث تحقّقت رؤياه كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

محنة يوسف عليه السلام:

لقد مر يوسف بمحن شديدة، وكانت حياته عليه السلام حياة عصيبة، فقد تَنَقَّل بين عسر ويسر، وشدة ورخاء، وضيق وسعة، ثم كانت نتيجة هذه المحن والمصائب العظيمة أن وسّع الله عليه، وأكرمه بالعز والسلطان، فخرج من السجن إلى المُلْكِ، فملّكه الله خزائن أرض مصر، حتى أصبح الناس يأتون إليه من كل صقع وبلد ليمتاروا، ومن ضمنهم إخوته الذين أضرّ بهم الجدب فجاءوا إليه من أجل الميرة فعرفهم وهم له منكرون. ولقد كانت محنته سبباً لتلك المنّة العظيمة عليه وكما يقول بعض العارفين: (ربما كمنت المنّةُ في المحنة).

ولقد مرت على يوسف عليه السلام محن ثلاث:

المحنة الأولى: وذلك حين حسده إخوته فدبروا له مكيدة من أخطر المكائد أرادوا بها قتله، ثم اكتفوا بإلقائه في (الجب) ولولا عناية الله ورحمته به لكان من الهالكين.

المحنة الثانية: حين أحبّته امرأة العزيز، وراودته عن نفسها، وعملت كل حيلة من أجل إغرائه وإغوائه ــ وهو شاب في ريعان شبابه ــ ولكنّ الله حفظه من كيدها ونجّاه من تلك الورطة العظيمة:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

المحنة الثالثة: وهي دخوله السجن ــ ظلماً وعدواناً ــ ومكثه فيه سبع سنين، بسبب تلك التهمة الملفّقة، ولولا (رؤيا الملك) التي شغلت ذهنه وباله لمكث في السجن السنين الطويلة:

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

تنبيه هام على عصمة يوسف:

ذكرنا في باب (عصمة الأنبياء) عشرة وجوه في عصمة يوسف الصديق نبي الله الكريم، ونزيد هنا كلمة لطيفة للمفسر الشهير (الفخر الرازي) وهي تدل على نزاهة يوسف وعصمته وبراءته من (الهمّ) الذي زعمه بعض الجهلة، قال رحمه الله:

١ ــ إنّ يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله جل وعلا:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢ ــ وشهد ببراءته الشاهد من أقرباء امرأة العزيز قال تعالى:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ . . .﴾ الآية.

٣ ــ وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطّعن أيديهن قال تعالى:

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ . . .﴾ الآية.

٤ ــ وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها:

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ . . .﴾ الآية.

حصحص: أي ظهر ووضح.

٥ ــ وشهد ببراءته الشيطان بقوله:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ . . .﴾[1].

فالذي يريد أن يتهم يوسف بـ (الهمّ) عليه أن يختار أن يكون من حزب الله، أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف، فلا مفر إذاً من الإقرار بالحق على أيّ حال، وهو براءة يوسف عليه السلام من الهمّ بامرأة العزيز. . .) . انتهى كلام الفخر الرازي.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي ١٨/١١٧.

وفاة يوسف عليه السلام:

قال المؤرخون: ولما اجتمع يوسف بأبيه بعد الفراق كان عمر يعقوب مائة وثلاثين سنة (١٣٠) ثم توفي يعقوب بعدها بسبع عشرة سنة (١٧) وعاش يوسف عليه السلام من السنين (١١٠) مائة وعشراً، ومات في مصر وهو في الحكم ودفن فيها، وكان قد أوصى إخوته أن يُحْمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن مع آبائه، وقد نقل رفاته إلى الشام أيام موسى عليه السلام، ودفن بنابلس على الأرجح، وكانت وفاة يوسف بعد ميلاد جده الأكبر (إبراهيم) عليه السلام بـ (٣٦١) سنة وقبل مولد موسى عليه السلام بـ (٦٤) سنة على الصحيح من الأقوال[1].

وقد طلب من ربه جلّ وعلا حين دنا أجله أن يميته على الإيمان، وأن يلحقه بعباده الصالحين فقال:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

وقد استجاب الله دعاءه فنقله إلى الرفيق الأعلى. رحمه الله رحمة واسعة ورزقنا الموت على الإيمان، إنه سميع مجيب الدعاء.

* * *

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/ ٣٣٠ ـ ٣٦٤؛ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٧٨ ـ ٨٨؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٨٥ ـ ٢٠٦.

شعيب عليه السلام

ـ ٩ ـ

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ . . . ﴾ الآية. من سورة الأعراف: الآية (٨٥)

ذِكره في القرآن:

ورد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن عشر مرات، في مواطن متفرقة من سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت، وقد أرسله الله إلى مدين، ويُعرفون أيضاً بـ (أصحاب الأيكة) لقولهِ تعالى:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّ (أصحاب الأيكة) قوم آخرون غير أهل مدين ، أرسله الله إليهم بعد هلاك مدين فكذبوه فأخذهم عذاب (يوم الظُلّة) والصحيح أنّ أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، لأن سورة الشعراء وضّحت أنهم كانوا يطففون المكيال والميزان، وهذا وصف أهل مدين، وسمّوا بأصحاب الأيكة لأن الأيكة هي الغوطة التي يكثر فيها الشجر، وقد كانوا يجمعون بين التجارة والزراعة، وأراضيهم كانت كثيرة الأشجار، وافرة الثمار، وفيها الحدائق والبساتين الغناء فلذلك سموا بأصحاب الأيكة.

نَسَبه عليه السلام:

هو (شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين أحد أولاد إبراهيم الخليل عليه

أفضل الصلاة والتسليم) وأمّه بنت لوط عليه السلام وقد كانت بعثته بعد (لوط) لقوله تعالى في قصة قومه: ﴿وما قومُ لوط منكم ببعيد﴾ وقبل رسالة موسى لأنّ الله تعالى لمّا ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً أعقب ذلك بقوله: ﴿ثُمّ بعثْنا منْ بعدِهمْ موسى بآياتِنا إلى فرعونَ وملائِه﴾ فدلّ على أنّ (شعيباً) كان من قبل زمن موسى وهارون عليهما السلام. وقد أخطأ بعض المؤرخين فظنّ أنّ (شعيباً) كان زمنه بعد موسى بعدة قرون، وهذا ينافي النص السابق، وقد التبس الأمر عليهم بين (شعيب) وبين (شعيا) أحد الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن الكريم فظنوا أن (شعيا) هو شعيب ومن هنا جاء الخطأ كما نبّه عليه بعض المحققين من العلماء.

أين كانت مساكن أهل مدين؟:

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون في بلاد الحجاز، ممّا يلي جهة الشام، قريباً من (خليج العقبة) من الجهة الشمالية منه، ويقول (الطبري) أنّ بين مصر وأرض مدين ثماني ليال[1]، ويظهر أنها في الأرض المسماة الآن (معان) وهي جنوب فلسطين. وأهل (مدين) ينسبون إلى أحد أولاد إبراهيم وهو (مدين بن إبراهيم) وفي التوراة يسمى (مديان) وإنما سميت هذه القبيلة باسم (مدين) نسبةً إليه حيث عاش بينهم وصاهرهم فصار له فيهم رهط وأسرة فسُموا أهل مدين.

دعوة شعيب لقومه:

كان أهل مدين أهل تجارة وزراعة، وكانوا أصحاب رفاهية ونعيم، وقد كانوا على دينهم الذي ورثوه عن إبراهيم، ولكنّه لم يطل بهم العهد حتى غيّروا وبدّلوا وكفروا بالله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وقد فشت فيهم منكرات عديدة، منها (التطفيف) في المكاييل والموازين، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/ ٣٢٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٧٣.

وقد بعث الله إليهم (شعيباً) عليه السلام فدعاهم إلى توحيد الله وذكّرهم بعذابه، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان وأمرهم بالإصلاح وعدم الإفساد، فآمن به قليل وكذّبه الأكثرون، وقد كان هؤلاء المكذّبون على غاية من الضلال والجحود، يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين، ويمنعونهم عن الإيمان به، ويتوعدون من اتّبعه بأنواع من التهديد والوعيد كما قال القرآن الكريم على لسان شعيب عليه السلام:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ولمّا ألحّ عليهم شعيب عليه السلام في الدعوة والموعظة جاهروه في العداء؛ وادعَوا أنهم لا يفقهون كلامه، ولا يعرفون غرضه، وتوعدوه بأنه لولا أنَّ له أنصاراً لقتلوه، كما قال تعالى:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

ثم هدّدوه وتوعّدوه بالإخراج والطرد من القرية، هو والذين آمنوا معه إلّا أن يعودوا في ملتهم، ويدخلوا في دين قومهم استمع إلى قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ . . .﴾.

العبرة من قصة شعيب:

العجب من هؤلاء القوم، يأتيهم نبيهم الكريم بدعوة إنسانية كريمة، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار فيقولون له: ﴿ما نفقهُ كثيراً ممّا تقولُ وإنّا لنراك فينا ضعيفاً. . .﴾ مع أن دعوته في غاية الظهور والبيان، ويدعوهم إلى ترك عبادة غير

الله فيتوعّدونه بالطرد من القرية، وإخراجه هو ومن آمن معه، ويأمرهم بترك ذلك المنكر القبيح (تطفيف المكيال والميزان) فيجيبونه بأسخف جواب وأتفه كلام، ساخرين منه، متهكمين عليه في صلاته وعبادته:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

عجبٌ والله أن يهزأ الجاهل من العالم، وأن يسخر المجنون من العاقل، وأن يصبح السفيه صاحب حجة وبيان يريد أن يظهر بها على خصمه الذي يدعوه إلى الفضيلة والطهر والعفاف؟ متى كانت الاستقامة تعدّ نقصاً؟ ومتى كانت الفضيلة تعتبر عيباً يلام عليه الإنسان؟ ولكنه منطق البغي والعدوان كما قال قوم لوط لنبيهم وأتباعه من المؤمنين: ﴿أَخْرِجُوهُمْ من قريتكم إنّهمْ أناسٌ يتطّهرونَ...﴾ كذلك كان موقف أهل مدين من شعيب عليه السلام:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾...﴾.

هلاك قوم مدين:

ولقد كان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى (شعيب) أن يسقط عليهم كسفاً (قطعاً) من السماء، إنْ كان من الصادقين في دعوته، فأخذهم عذاب (يوم الظّلة) بأن سلط الله عليهم الحر سبع أيام حتى غلت مياههم، ثمّ ساق إليهم غمامة فاجتمعوا تحتها للاستظلال فراراً من شدة الحر، فلما تكامل عددهم في ظلها تزلزلت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة وأمطرت عليهم السماء ناراً فاحترقوا، وصدق الله حيث يقول:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾...﴾.

وقد عاش شعيب بعد هلاك قومه مدة من الزمن إلى أن توفاه الله تعالى، وذلك في الفترة الواقعة بين وفاة يوسف ونشأة موسى عليه الصلاة والسلام، ويغلب على الظن أنّ أحداث إهلاك قومه كانت بعد انتقال بني إسرائيل إلى مصر، والله تعالى أعلم.

أيـــوب عليه السلام

ـ ١٠ ـ

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ . . ﴾.

من سورة الأنبياء: الآيتان (٨٣ ـ ٨٤)

ذِكرُه في القرآن:

ذُكِر اسم (أيوب) في القرآن الكريم أربع مرات، في سورة النساء، والأنعام، والأنبياء، وفي سورة (صّ) وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام على وجه التحقيق لقوله تعالى في معرض الحديث عن إبراهيم:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ . . . ﴾.

نَسَبه عليه السلام:

يختلف العلماء في نسبه حتى قال أبو البقاء: (لم يصحّ في نسبه شيء) ولكنّ ابن كثير رجّح أنه من سلالة (العيص بن إسحٰق) وذكر أنّ أمه بنت (لوط) عليه السلام حكاه عن ابن عساكر، والراجحُ من الأقوال في نسبه ما ذكره ابن إسحٰق، وهو كالتالي: «أيوب بن أموص بن زارح بن العيص بن إسحٰق بن إبراهيم الخليل» عليه السلام.

بلاء أيوب عليه السلام:

ابتلي أيوب عليه السلام بلاء شديداً في أهله وبدنه، وماله، ولكنه كان مثالاً للعبودية الحقة لله تعالى، فصبر على ذلك حتى أصبح يُضرب فيه المثل على الأذى فيقولون: (صَبْراً كصبر أيوب) وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بقوله:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ . . . ﴾.

وقد كان أيوب عليه السلام من الأغنياء صاحب ثروة ومال وبنين، وكان يملك أراضٍ واسعة وحقولاً وبساتين، وقد ابتلاه الله بالنعمة والرخاء فآتاه الغنى والصحة وكثرة الأهل والولد، فكان عبداً نقياً ذاكراً شاكراً لأنعم الله عليه لم تفتنه الدنيا ولم تخدعه، ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، ففقد المال والأهل والولد ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فصبر على البلاء وحمد الله وأثنى عليه، وما زال على حاله من التقوى والعبادة والرضى عن ربه، فكان في حالتي الرخاء والبلاء، مثالاً لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن، وإرغام أنف الشيطان. قالوا: وكانت له امرأةٌ مؤمنة صالحة اسمها (رحمة) من أحفاد يوسف عليه السلام، وقد رافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالين مع زوجها شاكرة وصابرة.

ثمّ إنّ الشيطان حاول أن يدخل على (أيوب) في زمن بلائه فلم يؤثّر فيه فحاول أن يدخل إليه عن طريق امرأته فوسوس لها: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها اليأس والضجر مما أصابه فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب أيوب وقال لها: كم لبثتُ في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين، قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي وما قضيت فيه مدة رخائي!! ثم قال: والله لئن برئتُ لأضربنَّكِ مائة سوط، وحرَّم على نفسه أن تخدمه بعد ذلك[1].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/٣٢٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/٢٠٨؛ والكامل لابن الأثير ١/٧٤.

ثم نادى ربه في حالة الوحدة والشدّة: ﴿ربِّ إني مسّنيَ الضُرّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ...﴾ فأجاب الله دعاءه، وكشف بلاءه، وأوحى إليه أن يضرب برجله الأرض، فضرب الأرض فتفجّر له منها الماء البارد، فأمره أن يشرب منه ويغتسل، فشفاه الله، وعاد أكمل ما كان صحةً وقوة، قال تعالى:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾...﴾.

وقال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾...﴾.

أمر الله أن يبرّ بيمينه بأن يضربها بحزمة من قضبان خفيفة فيها مئة عود، أو يأخذ عِذْقاً من النخل فيه مائة شمراخ (عود) فيضربها بها ضربة واحدةً ويبرّ في يمينه ولا يحنث، وقد شرع الله ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه، وتحمّلها معه وقت الشدة والبلاء صنوف المحنة والابتلاء.

قال ابن كثير: (وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصَدِيقة، البارّة الراشدة، رضي الله عنها، ولهذا عقّب الله هذه الرخصة وعلّلها بقوله: ﴿إنّا وجدناهُ صابراً نعمَ العبدُ إنَّهُ أوّابٌ...﴾.

ثم قال: وقد استعمل كثيرٌ من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسّع آخرون فيها حتى وضعوا الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدّروه بهذه

الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب[1].

إسرائيليات دخيلة في قصة أيوب:

وقد ذكر بعضهم أموراً لا يجوز اعتقادها بالنسبة لبلاء (أيوب عليه السلام) وهي منقولة عن إسرائيليات لم تصحّ، منها: أنّ أيوب حين اشتدّ به المرض وطال به البلاء عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وانقطع عنه الناس، وتعفّن جسده حتى كان الدود يخرج منه، فأخرج من البلد وأُلقِيَ على مزبلة خارجها.. إلى غير ما هنالك من الحكايات المنقولة عن التوراة المحرفة أو هي من أقوال أهل الكتاب.. وهذا مما يتنافى مع منصب النبوة، وقد قرّر علماء التوحيد أنّ الأنبياء منزّهون عن الأمراض المنفِّرة، فكيف يتفق هذا القول مع منصب النبوة؟ والصحيح أنّ المرض الذي ألمّ بأيوب لم يكن مرضاً منفِّراً وليس فيه شيء من هذه الأقوال العليلة، وإنما هو مرض طبيعيّ ولكنه استمرّ به سنين عديدة تبلغُ سبعاً، وقيل: إنّ مرضه استمر ثمان عشرة سنة، وهو ـ بلا شك ـ أجلٌ طويل لا يصبر عليه عادة الإنسان، ثم إنّ بلاءه لم يكن في جسده فحسب بل شمل المال والأهل والولد، ولهذا قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقد عاش أيوب عليه السلام (٩٣) سنة ورزقه الله المال والبنين وقد ولد له ٢٦ ولداً ذكراً منهم واحد يسمى (بِشْراً) الذي يقول بعض المؤرخين: إنه (ذو الكفل) الذي ذكره القرآن في ضمن الرسل الكرام، وقد كانت رسالة أيوب إلى أمة الروم ولهذا يقولون: إنه من أمة الروم، وكان مقامه في دمشق وأطرافها على ما ذكره بعض المؤرخين.

* * *

(١) البداية والنهاية ١/٢١٠.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٧٦ ـ ٧٧؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

ذو الكفل عليه السلام

- ١١ -

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

من سورة صٓ: الآية (٤٨).

نَسَبه عليه السلام:

قال أهل التاريخ: ذو الكفل هو ابن أيوب عليه السلام، الذي مرّ معنا ذكره ونسبه هو نسب أيوب عليه السلام واسمه في الأصل (بشر) وقد بعثه الله بعد أيوب وسمّاه (ذا الكفل) لأنه تكفل ببعض الطاعات فوفّى بها، وكان مقامه في الشام، وأهل دمشق، يتناقلون أنّ له قبراً في جبل هناك يشرف على دمشق يسمى (جبل قاسيون).

يرى بعض العلماء أنه ليس بنبي وإنما هو رجل من الصالحين من بني إسرائيل وقد رجّح ابن كثير نبوّته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء فقال جلّ وعلا في سورة الأنبياء:

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ . . . ﴾.

وقال في سورة (صٓ) بعد قصة أيوب:

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ . . . ﴾.

قال ابن كثير: (فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور[1].

(١) البداية والنهاية ١/٢١١؛ وتاريخ الطبري ١/٤٦٤.

obeikandl.com

والقرآن الكريم لم يزد على ذكر اسمه في عداد الأنبياء، أمّا دعوته ورسالته والقوم الذين أُرسِلَ إليهم فلم يتعرض لشيء من ذلك لا بالإجمال ولا بالتفصيل، لذلك نمسكُ عن الخوض في موضوع دعوته حيث إنّ كثيراً من المؤرخين لم يوردوا عنه إلّا النزر اليسير، وممّا ينبغي التنبه له أنّ (ذا الكفل) الذي ذكره القرآن الكريم هو غير (الكفل) الذي ذُكِرَ في الحديث الشريف، ونصّ الحديث كما رواه الإمامُ أحمد والترمذي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال:

«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنْ هذا عمل لم أعمله قطّ وإنما حملتني عليه الحاجة... قال: فتفعلينَ هذا ولم تفعليه قطّ؟ ثمّ نزل فقال: اذهبي بالدنانير لك، ثمّ قال: والله لا يعصي الله الكفلُ أبداً. فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»[1].

قال ابن كثير: ورواه الترمذي وقال: حديث حسن، وروي موقوفاً على ابن عمر، وفي إسناده نظر، فإنْ كان محفوظاً فليس هو (ذا الكفل) وإنما لفظ الحديث (الكفل) من غير إضافة ، فهو إذاً رجل آخر غير المذكور في القران...[2].

ويذكر بعض المؤرخين أنّ (ذا الكفل) تكفّل لبني قومه أنْ يكفيهم أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل، فسمّيَ ذا الكفل، وذكروا بعض القصص في ذلك، ولكنّها قصص تحتاج إلى تثبت، وإلى تمحيص وتدقيق، لذلك فقد ضربنا صفْحاً عن ذكرها لأنّ في الروايات الصحيحة غُنْية عنها، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

(١) الحديث أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٩٦ وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في المسند أيضاً.

(٢) البداية والنهاية ١/٢١١.

هـارون عليه السلام

- ١٢ -

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ . . . ﴾ .

من سورة يونس: الآية (٧٥)

نَسَبه عليه السلام:

هو (هـرون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن) عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وهو شقيق موسى عليه السلام، وقد بعثه الله رسولاً مع (موسى) معيناً له في دعوته، وقد استجاب الله دعاء موسى حين طلب من ربه أن يجعل له هـرون وزيراً، ومعيناً في تبليغ الدعوة: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

فوهبَ له هـرون وأعطاه النبوة رحمة منه جلّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاهُ هـرونَ نبيّاً. . . ﴾ .

حياته عليه السلام ودعوته:

ولد هـرون عليه السلام قبل ولادة موسى بثلاث سنين، وقد بعثه الله رسولاً إلى بني إسرائيل مع أخيه موسى عليه السلام، وقد كان فصيح اللسان قويّ الجنان، ولذلك أرسله الله مع أخيه، ليكون له ردءاً ومعيناً في تبليغ الدعوة إلى فرعون الجبار، كما قال تعالى حكاية عن موسى:

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ . . . ﴾.

وإذا ذكرت دعوة موسى ذكرت دعوة هٰرون مقرونة بها، فقد أُرسلا إلى (فرعون وهامان وقارون) وكانا رسولين إلى بني إسرائيل ولكنّ (موسى) عليه السلام أعظم شأناً، وأفضل منزلة من هٰرون، فهو من كبار (أولي العزم) بينما هٰرون عليه السلام كبقية الرسل، وقد بسط القرآن الكريم حياة موسى في ولادته، ونشأته وفراره من مصر، ودخوله أرض مدين، وزواجه ابنة شيخ مدين، وتكليم الله له في جانب الطور، وتحميله الرسالة، والمعجزات التي جرت في حياته، وسائر الأحداث العظيمة التي وقعت لبني إسرائيل، وقد ذكرنا طرفاً منها حين تحدثنا عن قصة (موسى الكليم) عليه السلام ضمن الرسل الخمسة من أولي العزم. . وفي كل هذه كان هٰرون عليه السلام مرافقاً لأخيه في الدعوة لم يفارقه في سفر ولا في حضر.

وحين ذهب موسى لمكالمة ربه عند جبل الطور، ووعد موسى قومه أن يأتيهم بالتوراة لتكون دستوراً وشريعة لهم، استخلف أخاه (هٰرون) على بني إسرائيل، وأكد عليه الأمر بالنظر في مصالحهم، وإصلاح شؤونهم، واليقظة في أمرهم خشية أن يفتنهم أحد عن دينهم، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ . . . ﴾.

وقد كانت مدة غياب موسى عن قومه أربعين يوماً كما قصّ علينا القرآن الكريم، وفي أثناء هذه الفترة كانت المحنة العظمى والابتلاء الكبير على شعب بني إسرائيل، حيث عبدوا (العجل) في غياب موسى، ذلك العجل الذي صنعه (السامريّ) من الذهب والحليّ، وألقى عليه قبضة من تراب كان قد أخذها من أثر فرس جبريل حين نزل مع الملائكة لإغراق فرعون وجماعته، وقد أصبح لهذا العجل صوت يشبه خوار البقر، وزعم هذا الخبيث الضالّ أنّ هذا العجل هو الرب الذي

بحث عنه موسى فلم يعرف مكانه، وحذّرهم هٰرون فتنة ذلك المجرم العنيد، ولكنهم لم يلتفتوا إلى كلامه وعبدوا العجل من دون الله، فلما رجع موسى ووجد قومه في هذه الفتنة العظيمة، غضب غضباً شديداً على قومه وعلى أخيه، وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه فأخبره هٰرون بما حدث لهم، وبموقفه معهم وعدم انصياعهم لأوامره، اقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ . . . ﴾.

وقد ذُكرت القصة مفصّلة في كتب التفسير والتاريخ فارجع إليها. وقد عاش هٰرون (١٢٢) سنة انتقل إلى جوار ربه قبل أخيه موسى بأحد عشر شهراً، وكانت وفاته في أرض التيه قبل دخول بني إسرائيل أرض فلسطين، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته[1].

* * *

(١) راجع: تاريخ الطبري، وتاريخ ابن كثير في تفصيل القصة.

داود عليه السلام

ـ ١٣ ـ

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ . . .﴾.
من سورة الإسراء: الآية (٥٥)

ذِكْرَه في القرآن:

ورد اسم (داود) في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، في (البقرة، والنساء، والمائدة، والأنعام، والإسراء، والأنبياء، والنمل، وسبأ، وسورة صّ) وهو من أنبياء بني إسرائيل الكرام ومن سبط (يهوذا بن يعقوب) وقد جمع الله تعالى له بين (النبوة والملك) وأعطاه خيري الدنيا والآخرة فكان نبياً ملِكاً كما كان ولده سليمان عليه السلام.

نَسَبه عليه السلامْ:

هو (داود بن إيشا بن عويد. . من أولاد يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام). وقد ذكر أهل التوراة وأهل الإنجيل نسبه في كتبهم مفصّلاً وهم جميعاً متفقون على أنّه من سبط يهوذا بن يعقوب المسمى (إسرائيل) عليه السلام وهو أحد الرسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى عليه السلام، و أعطاه الله الزبور، كما قال تعالى: ﴿وآتَيْنَا داودَ زَبُوراً﴾.

مكانة داود بين بني إسرائيل:

بعد وفاة موسى وهٰرون، تولى أمر بني إسرائيل نبيّ من أنبيائهم يدعى

(يوشع بن نون) عليه السلام فدخل بهم بلاد فلسطين (الأرض المقدّسة) التي كانوا قد وعدوا بها على لسان موسى في التوراة، وقسم لهم الأرضين، وقام بأمرهم إلى وفاته، ولمّا توفي (يوشع بن نون) تولى أمرهم قضاة منهم وبقوا على ذلك ٣٥٦ سنة ويسمى الحكم في هذه الفترة (حكم القضاة).

وفي هذه الفترة دبّ إلى بني إسرائيل الوهن والضعف، وفشت فيهم المعاصي والمنكرات، وضيّعوا الشريعة، ودخلت في صفوفهم الوثنية، فسلّط الله عليهم الأمم القريبة منهم، فغزاهم العمالقة، والأراميون، والفلسطينيون وغيرهم، وكانوا إلى الخذلان أقرب منهم إلى النصر في كثير من حروبهم مع عدوهم.

قال ابن جرير في تاريخه: ثم مرج أمر بني إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب والخطايا، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء فسلّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبّارين يظلمونهم، ويسفكون دماءهم، وسلّط عليهم الأعداء من غيرهم، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم (تابوت الميثاق) ويسميه أهل الكتاب (تابوت العهد) فيه ألواح موسى وعصاه، وهو الذي أشارت الآية الكريمة إليه في قوله تعالى: ﴿وقال لهمْ نبيّهُم إنّ آيةَ مُلْكِهِ أنْ يأتيكُم التّابُوتُ فيهِ سَكِينةٌ منْ ربّكُمْ، وبقيّةٌ ممّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هارون. . .﴾ الآية.

وقد كانوا يُنصرون ببركته فلمّا كانوا في بعض حروبهم مع أهل (غزّة وعسقلان) غلبوهم على أخذه فانتزعوه من بين أيديهم، ومات ملكهم كَمَداً وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع، حتى بعث الله إليهم نبياً من الأنبياء يقال له (شمويل) وأهل الكتاب يقولون: (صمويل) فطلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً منهم ليقاتلوا معه الأعداء[1]، فكان من أمرهم ما قصّ الله علينا في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا

(١) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٤٧٢.

﴿نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقد جعل عليهم نبيهم (طالوت) ملِكاً بوحي من الله فملَّكه أمرهم لقوته (الجسمية والعلمية) ولكنّ بني إسرائيل تمردوا على توليه الملك وقالوا لنبيهم:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ...﴾[2].

أصبحَ (طالوت) ملكاً على بني إسرائيل، وأيده الله على المُلك بمجيء التابوت الذي كان قد نُزع منهم، فاختار الجنود الأقوياء الأشداء، وخرج بهم لقتال عدوهم، وفي الطريق اختبرهم بعد أن اشتدّ بهم الظمأ في رحلة برية شاقة بالمرور على النهر فأمرهم ألا يشربوا منه إلاّ من أخذ جرعة من الماء ليُبلّ بها ظمأهُ، وكان ذلك اختباراً وامتحاناً من طالوت لجنوده في قوة بأسهم وإرادتهم، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[3].

لم يبق مع طالوت إلا عدد قليل يقدر بـ ٣١٩ وكان عددهم على ما يذكر السدّي ٨٠ ألفاً فرجعوا حيث إن إرادتهم كانت خوّارة فلم يصحبهم طالوت معه لقتال الأعداء وإنما اكتفى بهؤلاء القلة في قتال خصومه (الوثنيين) الفلسطينيين وكان رئيس جيش العدو يسمى (جالوت) وكان جبّاراً شديداً يهابه الناس، فرهِبه بنو إسرائيل وقالوا:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٤٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٤٩).

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ . . .﴾[1].

كان (جالوت) يطلب المبارزة فتقدم إليه فتى صغير اسمه (داود) من سبط يهوذا ولم يكن في الحسبان أن يدخل مثله في المقاتلين لصغر سنّه، فلمّا أقبل عليه احتقره وازدراه وقال له: ارجع فإنني أكره قتلك فقال له، داود: ولكني أحب قتلك، ثم حصلت مبارزة بينهما فقتل (داود) جالوت، وانهزم جيشه شر هزيمة وتم النصر لداود عليه السلام، قال تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . . .﴾.

منذ ذلك الحين لمع اسم (داود) بين شعب بني إسرائيل، وتتابعت الانتصارات على يديه وأعزّ الله بني إسرائيل بعد أن كانوا في ذلّ وهوان، فاجتمع بنو إسرائيل بعد وفاة (طالوت) وبايعوا هذا الغلام الفتيّ على الملك، فأصبح ملكاً عليهم، وكان عمره لا يزيد على ٣٠ عاماً، وقد حكم بين شعبه بالعدل، وساسهم بالمساواة، وطبّق عليهم أحكام التوراة، إلى أن أوحى الله له بالزبور، أحد الكتب السماوية الأربعة.

رسالته ودعوته عليه السلام:

لمّا بلغ داود عليه السلام من العمر ٤٠ سنة آتاه الله النبوة مع الملك وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه الزبور فيه مواعظ وعبر، ورقائق وأذكار، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

وقد كان (داود) عليه السلام حسن الصوت، جميل الإنشاد، حتى أصبح

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٤٩).

(٢) انظر: تاريخ الطبري.

يُضرب به المثل في حسن الصوت، فيقال: أعطي مزماراً من مزامير داود، وقد سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ القرآن ـ وكان حسن الصوت ـ فوقف يستمع لتلاوته فأعجب بصوته الجميل وتلاوته الرائعة فقال له: «لقد أُعطِيتَ مزماراً من مزامير آل داود»، فقال: يا رسول الله أكنتَ تستمع لقراءتي؟ قال: «نعم»، قال: «لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيراً»، أي لجمّلت قراءتي وحسنتها لك أكثر.

كان داود عليه السلام إذا قرأ الزبور تكفّ الطير عن الطيران، وتقف على الأغصان والأشجار، فترجّع بترجيعه، وتسبّح بتسبيحه، وكذلك الجبال تردّد معه في العشيّ والإبكار، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً[1]، فهو يصدح بصوته العذب الجميل بتسبيح الله وتحميده، ويتغنى فيه بكلام الله في الزبور فتسبح معه الجبال والطير، قال تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

وكان مع ذلك الصوت الرخيم سريع القراءة للزبور، مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع فقد جاء في الحديث الشريف: «خُفّف على داود القرآنُ فكان يأمر بدوابّه فتُسرج (أي يوضع على ظهرها السرج للركوب) فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرج دوابه، وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه»[2]. وقد كان داود عليه السلام مع هذه العظمة والملك والجاه كثير العبادة لله سبحانه وتعالى، كان يقوم

---

(١) البداية والنهاية ٢/١١.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ٦/٣٢٦ من فتح الباري، وأخرجه أحمد في المسند.

الليل ويصوم النهار ويقضي جزءاً كبيراً من يومه في مسجده ومصلّاه، فكان ذا قوة في العبادة والطاعة وعمل الصالحات، كما قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ . . .﴾.

قال ابن عباس: الأيْد القوة في الطاعة والعبادة، وفي الصحيحين: «أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داودَ، وأحبّ الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصفَ الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. . .».

المزايا التي خصّ الله بها داود عليه السلام:

١ ــ تسخير الجبال معه يسبّحن بكرة وعشياً: ﴿إنّا سخّرنا الجبالَ معهُ يسبّحنَ بالعَشِيّ والإشْرَاقِ﴾.

٢ ــ ترجيع الطير معه كلمّا قرأ الزبور: ﴿والطيرَ محشورةٌ كلٌّ له أوّابٌ. . .﴾.

٣ ــ تعليمه منطق الطير: ﴿عُلِّمنَا منطِقَ الطّيْرِ. . .﴾.

٤ ــ إلانَةُ الحديد له فكان بين يديه كالعجين: ﴿وألنّا له الحديد. . .﴾.

٥ ــ علّمه الله صناعة الدروع لدرء خطر الحرب: ﴿وعلّمناه صنعةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بأسِكُمْ. . .﴾.

٦ ــ قوّى الله ملكه وجعله منصوراً على أعدائه مُهاباً في قومه: ﴿وشَدَدْنا مُلْكَهُ. . .﴾.

٧ ــ آتاه الله الحكمة (النبوة) وفصل الخطاب (تمييز الحق عن الباطل) ﴿وآتيناهُ الحِكمةَ وفَصْلَ الخِطَابِ. . .﴾.

فرية عظيمة على داود:

وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش، حين نقلوا بعض القصص الإسرائيلية في تفاسيرهم، اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب، مما لم يصح سنده،

ولا يجوز اعتماده، لأنه من ضلالات أهل الكتاب، ولأنه يتنافى مع عقيدة المسلمين في (عصمة الأنبياء).

من هذه الأباطيل المدسوسة ما روي عن داود عليه السلام من أمر عشقه لزوجة قائد جنده، وخلاصتها: أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحمّ فأعجبته وأغرم بها، وكانت زوجة أحد قواده في المعارك وهو (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها فأرسله في أحد الحروب وحمّله الراية وأمره بالتقدم، وكان قد أوعز إلى الجنود أن يتأخروا عنه إذا تقدم نحو الأعداء، وبهذه الوسيلة قتل الرجل وتزوج داود بتلك المرأة التي عشقها، ويدّعي أهل الكتاب أن داود عاشرها في غياب زوجها (أي زنى بها) ثم دبر تلك المكيدة ليتخلص منه، وأنّ سليمان جاء من تلك المرأة العشيقة... إلى آخر ما هنالك من زور وضلال وبهتان، على هذا النبي الكريم، وهذه قصة مفتراة على داود، ومن يقرأ في كتب أهل الكتاب يجد فيها الشيء الكثير من نسبة الكبائر إلى أنبيائهم وقدّيسيهم، يلفقونها ليبرروا لأنفسهم ارتكاب الآثام، والوقوع في الكبائر.

قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء بمجرد تلاوة القصة في القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم.

وقال البيضاوي: وما قيل إنّه أرسل (أوريا) مراراً إلى الحرب، وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها داود، هزؤ وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: (من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص جلدته مئة وستين جلدة)[1]، وهذه عقوبة حد القذف مغلّظة لأنها في حق نبي من الأنبياء، أما القصة التي ذكرها القرآن الكريم فليس فيها ما يقدح بعصمة داود، وليس فيها شيء من هذا الشطط والبهتان الذي زعمه أهل الكتاب، وأخذه عنهم بعض المفسرين بدون تثبت ولا تحقيق، وسنورد

(١) انظر: تفسير البيضاوي.

الآية الكريمة التي زلّ فيها بعض الناس، ونبيّن معناها على الوجه الذي ذكره المحققون من المفسرين.

قال تعالى في سورة (صٓ):

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ...﴾.

وتفصيل القصة على ماذكره المحققون: أنّ داود عليه السلام جزّأ أزمانه يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ والإرشاد، ويوماً لخاصة نفسه، فتسوّر عليه ملائكة في صورة البشر في يوم الخلوة والاحتجاب ــ وكان الحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه ــ فلم يشعر داود إلّا وأمامه بعض الأشخاص ففزع منهم فقالوا له: لا تخف نحن فوجان مختصمان ﴿بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ..﴾.

أي لا تجر ولا تظلم في الحكم ﴿واهدنا إلى سواء الصراط..﴾ والمراد عين الحق وهو العدل ﴿إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجة...﴾ وهي الأنثى من الضأن وقد يكنّى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعاً وتسعين امرأة ﴿ولي نعجةٌ واحدةٌ فقالَ أكْفلنيها...﴾ أي ملكنيها ﴿وعزّني في الخطاب...﴾ أي غلبني في الخصومة فأجابه داود بقوله: ﴿لقد ظلَمك بسؤالِ نعجتكَ إلى نعاجِهِ...﴾ وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه حيث أراد أن يتنازل له صاحبه عن نعجته وعنده تسع وتسعون.. ﴿وظنَّ داودُ أنما فتنّاهُ...﴾ أي علم وأيقن أنما ابتليناه ﴿فاستغفرَ ربهُ وخرَّ راكعاً وأناب...﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة والإنابة، ولعل داود

رأى أنه أسرع بالحكم قبل سؤال المدّعى عليه، وأنه تجاوز الحق إذ لا يجوز له أن يحكم قبل أن يسمع كلام الخصمين.

هذه خلاصة القصة وليس فيها ما يزيد على أنّ (داود) استغفر ربه من شيء وقع منه ولعلّه إرادةُ الفتكِ لمن تسوّروا عليه المحراب حيث ظن بهم الشرّ والسوء فأراد قتلهم ثمّ سمع كلامهم فاستغفر ربه ممّا ظن بهم من سوء. وليس في القصة شيء مما ذكروا في الافتراء والبهتان فأين فيها الحب والغرام لزوجة قائده؟ وأين فيها تدبير المؤامرات لاختطافها منه بعد تعريضه للقتل في الحرب؟ سبحانك هذا بهتان عظيم..

ولسنا نعجب من افتراء أهل الكتاب على رسلهم وأنبيائهم، ولكننا نعجب من اغترار بعض علماء المسلمين بمثل هذه المفتريات والحكايات الإسرائيلية على الأنبياء والمرسلين، حتى ينقلوها في كتبهم ويروووها على أنها من قصص القرآن، فهل تليق هذه الأساطير بمقام نبي الله الكريم (داود) عليه السلام الذي قال عنه القرآن: ﴿نعمَ العبدُ إنهُ أوّابٌ...﴾ وقال عنه: ﴿وإنّ لهُ عندنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب...﴾ وقال أيضاً: ﴿وآتيناهُ الحكمةَ وفصل الخطاب...﴾[1]؟.

والأغرب من هذا أن نجد في التوراة أمثال هذا الخبر المفترى، الواضح البطلان في شأن داود عليه السلام، فقد ورد في التوراة ما يلي: (وكان داود يدخل المعابد الوثنية فيقيم فيها الطقوس الدينية إرضاء لرغبات زوجاته الوثنيات) أقول: ينبغي على العلماء التثبت في نقل الأخبار، وخاصة ما ذكر في كتب أهل الكتاب من قصص إسرائيلية، فإنّه مما لا شكّ فيه أنّ الكتب السماوية قد دخل إليها التحريف والتبديل، وكل ما خالف العقيدة الإسلامية الصافية فهو باطل مردود.

وفاة داود عليه السلام:

يقول أهل الكتاب: إنّ (داود) عاش سبعاً وسبعين سنة ثم توفاه الله تعالى. وقد ردّ هذا القول ابن جرير وقال: إنه غلط، وقال: إنه عاش مائة سنة وذلك

(١) انظر ما كتبناه في حاشية كتابنا صفوة التفاسير ٣/٥٤ حول هذه الفرية المكذوبة.

للحديث الذي رواه أحمد (إنّ آدم عليه السلام لما استخرج ذريته من ظهره رأى فيهم الأنبياء عليهم السلام، ورأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أيْ ربّ من هذا؟ قال هذا ابنك داود، قال: أيْ ربّ كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أيْ ربّ زد في عمره، قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك ــ وكان عمر آدم ألف عام ــ فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة، ولداود مائة سنة[1]، وقد دام ملكه ٤٠ سنة رحمه الله تعالى، وصلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية ٢/٤٦.

obeikandl.com

سليمان عليه السلام

ـ ١٤ ـ

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

من سورة النمل: الآية (١٧)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر اسم سليمان عليه السلام في القرآن الكريم في ست عشرة آية، في البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء، والنمل، وسبأ، وفي سورة(صٓ). وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، وقد رزقه الله (النبوة والملك) وجمع له بينهما كما جمعهما لوالده (داود) عليه السلام، وكان ملكه واسعاً وسلطانه عظيماً، لم يدانه أحد في تلك الرتبة والمنزلة، فقد استجاب الله دعاءه وأعطاه ملكاً عظيماً لم يعطه لأحد بعده، كما قال تعالى حكاية عنه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . . .﴾.

نَسَبه عليه السلام:

هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد. . . من سبط (يهوذا بن يعقوب) وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأهل الكتاب

يـذكرون نسبـه مطولاً، ويقـولون: كـان عظيم الحكمـة، ولذلـك يسمونـه (سليمان الحكيم) ولا يلقبونه بالنبيّ أصلاً[1].

حكمة سليمان عليه السلام:

أوصى داود عليه السلام بالملك لولده سليمان، ولما مـات داود ورثه سليمـان في الملك وكان عمره حينئذ (١٢) سنة ويروي ابن الأثير في الكامل: أن عمره كان ثلاث عشرة سنة، وقد كان مـع حداثة سنه من ذوي الفطانة والذكاء، وحسن التدبير والسيـاسة، وقـد أعطاه الله الحكمـة وحسن القضاء منـذ الصغر، وقـد ذكـر القـرآن الكريم طرفـاً من ذلك النبـوغ والذكـاء الذي كـان عند سليمـان وذلك في الفتوى التي عرضت على أبيه، فـأفتى فيها (داود) بـوجه وأفتى فيهـا (سليمان) بـوجه آخـر، كان أضمن للحق وأقرب للصواب كما قال تعالى:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ . . .﴾ الآيـة.

فقوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ يدل على أنّ ما أفتى به سليمان كان أقرب للصواب وقوله: ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ يدل على أنّ داود وسليمان كانا على جانب عظيم من الحكمة والعلم.

وتفصيل القصة ذكرها المفسرون: أن زرعاً دخلت فيـه غنم لقوم ليـلاً فأكلتـه وأفسدته، فجاء المتخاصمـون إلى داود وعنده سليمـان، وقصّوا عليـه القصة فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته ليلاً فقال سليمان ــ وهو ابن إحدى عشرة سنة ــ: غير هذا أرفق، تدفـع الغنم إلى أهـل الحرث فينتفعـون بألبـانها وأولادها وأشعارها، وتدفـع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كمـا كان، ثمّ يترادّان بعد ذلك فيعود لأهل الغنم غنمهم، ولأهل الحرث حرثهم.

---

(١) انظر: قصص القرآن للنجار ص ٣١٨.

ومما يدل على حكمة سليمان، وجودة رأيه في الحكم والقضاء، ما روي في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان فقال: ائتوني بسكين أشقُّه بينكما نصفين، لكل واحدة منكما نصفه، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضىٰ به للصغرى...»[1]. وهذه الحادثة تدل على أسلوب بارع في معرفة الحق، واستخراجه بطريق الحيلة، داود عليه السلام حكم به للكبرى لأنها كانت أقوى بالحجة من الصغرى، ويظهر أنها استطاعت ببعض القرائن أن تثبت الحق لطرفها، وأما سليمان عليه السلام فقد سلك طريقة بديعة لمعرفة صاحب الحق فحينما عرضتَا عليه أمرهما قال: أعطوني السكين أشقه بينهما نصفين، فسكتت الكبرى عن غفلة وبلاهة، واندفعت الصغرى بعاطفة الأمومة وحنانها تقول: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ظناً منها أنه سينفذ الحكم في ولدها فعرف أنه ابنها بسبب شفقتها عليه فحكم به للصغرى.

بناؤه لبيت المقدس:

قام (سليمان بن داود) بعمارة بيت المقدس، تنفيذاً لوصية أبيه داود عليه السلام بعد أربع سنين من توليه الملك، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وانتهى من بنائه بعد سبع سنين وأقام السور حول مدينة (أورشليم) أي مدينة القدس. وقد روي أنّ سليمان لمّا بنى بيت المقدس، سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثة فأعطاه اثنتين: «سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إيّاه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إيّاه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا ير يد إلّا الصلاة في هذا المسجد أن يُخرجه من خطيئته مثل يوم ولدته أمه»[2].

---

(١) رواه البخاري في الفرائض ١٢/٤٧؛ ومسلم برقم ١٧٢٠؛ وانظر: جامع الأصول ٨/٥٢٠.

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/١٧٦؛ والنسائي ٢/٣٤؛ وابن ماجه برقم ١٤٠٨.

قال ابن كثير بعد أن أورد تلك الرواية: فنحن نرجو أن تكون الثالثة لنا، وأنّ الله قد أعطانا إياها.

ولما انتهى من بناء بيت المقدس بنى (الهيكل) أي القصر الملكي، قال المؤرخون: وقد أتمّ بناءه في مدة ثلاث عشرة سنة وأنشأ مذبح القربان، وكان له اهتمام عظيم بالإصلاح والعمران، وكان له أسطول بحريّ، قالوا: وكانت السفن تجلب له من الهند الذهب والفضة والبضائع، وكانت له عناية فائقة بالخيل يروّضها ويعدّها للحرب، وكانت له مجموعة كبيرة من النساء الحرائر والسراري حيث لم يكن في شريعته تحديد لعدد الزوجات، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة على مائة امرأة، تلد كلّ واحدة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله ــ ولم يقل إن شاء الله ــ فما ولدت إلا واحدة منهن بشقِ إنسان، فقال رسول الله: لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله عز وجل»[1].

نعم الله على سليمان:

أكرم الله سبحانه (سليمان بن داود) بنعم عظيمة، وخصه بمزايا رائعة كانت عنواناً للعظمة والمجد، ومظهراً من مظاهر الملك العظيم، والجاه الكبير الذي أعطاه الله لسليمان عليه السلام، فكان له سيادة الدنيا، وعزة الآخرة، وهذه بعض نعم الله تعالى على سليمان:

أولاً: ورّثه الله الملك عن أبيه، كما أعطاه الله النبوة، فكان نبياً ملكاً، جمع بين الشرفين، قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داودَ. . . ﴾ الآية. قال ابن كثير: أي ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال لأنه كان له بنون غيره، وفي الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» فأخبر الصادق

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٣٠ من الفتح، ومسلم رقم ١٦٥٤ في الأيمان، والنسائي ٧/ ٢٥ وفي بعض الروايات «لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة. . .» وانظر جامع الأصول ١١/ ٦٦٥.

المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم بل تكون أموالهم صدقة على الفقراء[1].

ثانياً: علّمه الله منطق الطير، وسائر لغات الحيوانات، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدّث معها كما كان الأمر مع الهدهد أو النمل أو غيرها. روى ابن عساكر قال: مرّ سليمان بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبيّ الله: قال يخطبها إلى نفسه، ويقول: زوجيني أسكنك أيّ غرف دمشق شئت، قال سليمان: وغرف دمشق مبنية بالصخر لا يسكنها أحد ولكن كل خاطب كاذب[2].

قال تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ . . .﴾ الآية.

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا . . .﴾ الآية.

ثالثاً: إنّ الله تعالى آتاه الحكمة على حداثة سنه، ويشهد لذلك ماأوردناه من بعض القصص التي حكم فيها بحكم أقرّه القرآن الكريم عليه: ﴿ففهمناها سليمان﴾ وبما حصل له في قصة الذئب الذي عدا على ولد إحدى المرأتين كما مرّ سابقاً.

رابعاً: سخّر الله تعالى له (الريح) فكانت تنقله إلى أيّ أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في ساعات معدودات. كما قال تعالى: ﴿ولسليمانَ الريحَ غدّوها شهرٌ ورواحُها شهرٌ. . .﴾ والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر، فتقطع به في النهار الواحد مسيرة شهرين. قال الحسن البصري: (كان يغدو من دمشق فينزل

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٨.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٩.

بـأصطخـر فيتغدى بهـا، ويذهب رائحـاً منها فيبيت بكابل، وبين دمشـق وأصـطخـر مسيرة شهر وبين أصطخر وكابل مسيرة شهر).

وذكر ابن كثير: (أنـه كان لـه بساط تحمله الـريـح فيه الـدور المبنية والخيـام والأمتعـة والخيول والجمـال والرجـال وغير ذلـك من الحيوانـات والطيـور، فإذا أراد سفراً حملته الريـح).

أقـول: ليس هذا بغـريب ولا عجيب على قدرة الله تعـالى، فالإنسـان الـذي يقطـع الآن بالطائرة النفاثة أقاصي المعمورة، وينتقـل من بلد إلى آخر في سـويعات معـدودات، لا يستنكر مثـل ذلك الـذي سخّره الله تعـالى لنبيّـه الكـريم (سليمـان) بـواسـطة الـريـح، وهـذا التسخيـر من المعجـزات التي اختص بهـا سليمـان عليـه السلام.

وقد أنكر الشيـخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» موضوع البساط، ولا محل لهـذا الإنكار لأن قـدرة الله تصنـع العجـائب، ونحن نؤمن بمـا أثبتـه القـرآن من أنّ الريـح تقطـع به المسافات البعيدة، ولكن كيف كانت الريـح تحمله هـل تحمل بـه القصـر؟ أم تحمل بـه الخيل؟ أم تحمـل البسـاط؟ نتـرك علم ذلـك إلى الله تعـالى ونكتفي بما حدّث عنه القرآن، قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ . . .﴾.

ونحن ــ مع الشيخ ــ نقرّ بالمعجزات والعجائب، ولكن لا نبذّر فيها ولا نسرف ولعلّ الذي دعاه إلى إنكار ذلك تلك الصورة الغريبة العجيبة التي ذكرهـا بعض أهل القصص أو المبالغة التي اعتمد عليها بعض أهل التفسير، في ذكر أوصاف البساط.

خامساً: سخّـر الله تعالى لـه الجنّ ومردة الشيـاطين، يغوصـون له في البحـار لاستخراج الجواهـر واللآلىء، ويعملون لـه الأعمال التي يعجـز عنها البشـر، كبناء الصـروح الضخمة، والقصـور العاليـة، والقـدور الـراسيـات، والجفـان التي تشبـه الأحواض، كما قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ . . .﴾.

كما جعل الله له سلطة على جميع الشياطين، يسخّر من يشاء منهم في الأعمال الشاقة، ويقيّد من يشاء في الأغلال ليكف شرّهم عن الناس كما قال تعالى: ﴿والشياطينَ كلّ بناءٍ وغوّاصٍ، وآخرينَ مقرّنينَ في الأصْفَادِ. . .﴾ أي: الأغلال.

ولم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير (سليمان) عليه السلام، وذلك غاية العظمة، ونهاية الملك والسلطان لملوك الدنيا، فلم ينل أحد من الملوك ما ناله نبيّ الله سليمان عليه السلام، روى الإمام البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ عفريتاً من الجن تفلّت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني اللَّهُ منه فأخذتُه فأردت أن أربطه إلى ساريةٍ من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿ربّ اغفرْ ليْ وهبْ ليْ مُلْكاً لا ينبغيْ لأحدٍ مِنْ بعدِي﴾ فرددتُهُ خاسئاً»[1].

سادساً: أسال الله له عين القطر (وهو النحاس المذاب) فكان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصة كتدفق الماء فيصنع منه ما شاء، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ وهذه من خصوصيات سليمان عليه السلام كما ألان الله تعالى لأبيه الحديد. . ﴿وألنّا لهُ الحديدَ﴾ فكان بين يديه كالعجين يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، وقد قال ابن عباس في تفسير (القطر) بأنه النحاس وكانت باليمن، أنبعها الله له فكان يأخذ منها ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها[2]، ويقول بعض العلماء: ولعلّ ذلك كان في أرض بركانية.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المساجد ٦/٢٢٤ من الفتح، ومسلم رقم ٥٤١ في المساجد أيضاً.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٢/٢٨.

سابعاً: كان جنده مؤلفاً من (الإنس والجن والطير) وقد نظّم لهم أعمالهم ورتّب لهم شؤونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكبٍ حافل، يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسيرون معه، والطير تظلّله بأجنحتها من الجر، وعلى كل من هذه الجيوش نقباء ورؤساء يسيرون في عرض رائع، وموكب ملكي حافل، لم تَرَ العينُ مثله، وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصته عندما خرج بجنده فمرّ على واد النمل، فتكلمت نملة مع رفيقاتها، وفهم سليمان كلامها واعتذارها فتبّسم ضاحكاً من قولها وشكر الله على نعمه العظيمة التي أغدقها عليه، وطلب من ربه أن يرزقه الشكر على هذه النعم، اقرأ قوله تعالى:

﴿وحُشِرَ لسُليمَانَ جنودُهُ منَ الجِنّ والإنسِ والطّيرِ فهم يُوْزَعُونَ حتى إذا أتَوْا على وادِيْ النّمْلِ قالَتْ نملةٌ يا أيّها النّملُ ادخُلُوا مساكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهمْ لا يشعرونَ. فتبّسمَ ضاحكاً منْ قولِهَا وقالَ ربّ أوزعني أنْ أشكرَ نعمتكَ التي أنعمْتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ، وأدْخِلْني برحمتِكَ في عبادك الصالحينَ...﴾.

قال ابن كثير: وفي هذا السياق، دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه، لا ــ كما زعم بعضهم ــ من أنه إذ ذاك على البساط، لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء، لأنّ البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام، والطيرُ من فوق ذلك كله كما سنبيّنُه إن شاء الله[1].

والمقصود أنّ سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة أسراب النمل حين أمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، لئلا يتحطموا تحت وطأة الأقدام، ثم اعتذرت عن سليمان وجنده بذلك الاعتذار اللطيف، الذي يدل على فهم وإدراك منها لنفسية سليمان الكريمة، ولجنده الأوفياء الأبرار: ﴿لا يَحْطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهمْ لا يشعرونَ﴾ أفليس هذا دليلاً على أدب هذه النملة، وتمييزها بين الأشرار والأبرار؟.

(١) انظر: البداية والنهاية ٢/١٩.

وروي عن السدّي أنه قال: (أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا للاستسقاء، فإذا بنملةٍ قائمة على رجليها، باسطة يديها وهي تقول: (اللهمّ إنّا خلقٌ من خلقك، ولا غنى لنا عن فضلك. . .) فقال: ارجعوا فقد سقيتم من أجل هذه النملة.

قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ:

قصّ علينا القرآن الكريم قصة سليمان مع ملكة سبأ، وهي قصة رائعة فيها مغزى دقيق للملوك والعظماء وفيها بيان لسعة ملك سليمان حيث امتدّ من بيت المقدس، إلى أقاصي اليمن، ودانت له الملوك والأمراء، وقد اتخذ الملك وسيلة للدعوة إلى الإسلام فلم يترك ملكاً كافراً، ولا حاكماً جائراً، ولا سلطاناً ذا بأس وقوة إلّا ودعاه إلى الدخول في دين الله، فمن لم يجبه كان السيف هو الحكم الفصل، وهكذا انتشر دينه في أقطار المعمورة وعمّ أرجاء الدنيا.

ذكرنا أنّ جنده كانوا ــ من الإنس والجنّ والطير، كل له عمل يقوم به ــ وكان الجميع يحضرون لديه كما هي حالة الجنود مع الملوك، وكانت وظيفة الهدهد ــ على ما ذكره ابن عباس ــ البحث عن الماء في القفار في حالة الأسفار فيجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء؟.

وتفقد سليمان الطير يوماً فلم يجد (الهدهد) فعدّ ذلك جريمة اقترفها وتهدده بالذبح أو التعذيب إلّا إذا أتاه بعذر مقبول عن سبب هذا التخلف، فلمّا جاء (الهدهد) سأله عن غيبته فأخبره أنه كان في اليمن في بلدة سبأ، وهناك ملكة تسمى (بلقيس) قد ملكت على تلك الأمة، ولملكتهم عرش عظيم فيه أنواع الزينة والجواهر، وأنها وقومها جماعة وثنيون يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله وأخذ يقص عليه نبأ تلك المملكة العظيمة وما فيها من الأقوام الوثنيين الكافرين بالله.

تعجّب سليمان من هذا الخبر، كيف يكون في الدنيا من يعبد غير الله؟ وأراد أن يختبر الهدهد هل هو صادق في خبره أم كاذب؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى

الملكة، فذهب (الهدهد) بالكتاب إلى اليمن وألقاه على سريرها، وكان فيه الدعوة إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والإنابة والإذعان إلى الخضوع لملكه وسلطانه.

أخذت الملكة الكتاب وفتحته فإذا به:

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

لم ترد الملكة أن تستبدّ بالإجابة على هذا الكتاب، فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها الوزراء والأعوان وأطلعتهم على هذا الكتاب وما فيه من الخطاب الشديد، فأخذتهم العزة بالإثم، وثارت فيهم الحماسة، وقالوا لها: ﴿نحنُ أولُوا قُوّةٍ وأولُوْا بأسٍ شديدٍ، والأمرُ إليك فانظر يْ ماذا تأمرينَ؟﴾ كانت الملكة (بلقيس) ذكية عاقلة، فنظرت في الأمر بعين الفطنة ــ ولم تغتر بما أبداه رجالها من القوة والحماسة ــ وقالت لهم: إنّ دخول الملوك إلى المدن ليس بالأمر اليسير السهل، بل هو خراب للبلاد، وخاصة إذا دخلوها عن ثورة وغضب:

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وعرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب إلى حل هذه الأزمة التي أتتها من حيث لا تحتسب، وذلك بأن ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه بها، وتستنزل مودّته بسببها، وتحمّل هذه الهدية لرجال دهاة ينظرون مدى قوة سليمان، ثمَّ بعد ذلك تقرّر ما يجب أن تفعله على ضوء ما يأتيها عنه من أخبار.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» ما نصه:

(وظاهر أنها كانت تريد من إرسال الهدية أن يقف رسلها على أحوال هذا الملك الذي أرسل يتهددها على غير جريرة ويطلب حضورها إليه خاضعة بلا تردّد، ثم يعودون إليها بالتقرير الوافي عن حقيقته، وقوته في ملكه، ومبلغ ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة إذا لم تخضع لأمره، لتكون على بيّنة مما تأتي وتدع! وتكون على رأس أمرها، حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تقدير عواقبه، فلما جاءت رسلها

إلى سليمان بالهدية لم يقبلها، وأظهر أنه ليس في حاجة إلى أموالهم وأنه في حال حسنة، وانفساح ثروة أكثر مما فيه المِلِكَةُ وقومها، وتوعدّهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قِبَل لهم بها (أي لا قدرة لهم على قتالها) وأنّ عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلة صاغرين[1].

رجع الرسل إلى الملكة، ووصفوا لها ما شاهدوه من عظمة ملك سليمان، وكثرة جنده، وقوة بأسه وأخبروها بأنه رد الهدايا إليها، ولم يرض المصانعة وأنه مصمم على غزو البلاد بجيش عرمرم فعزمت الملكة على الاستسلام والانقياد وشدت رحالها وأحمالها، وسارت مع جماعتها إلى سليمان، اقرأ هذه الآيات البينات:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٣٣٤.

ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ . . .﴾[1].

حين علم سليمان بأن ملكة سبأ قادمة على زيارته في عاصمة ملكه شيّد لها صرحاً (قصراً) عظيماً من زجاج، وعمل في ممرّه ماءً، وجعل عليه سقفاً من زجاج وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء، بحيث يخيّل للناظر أنه (لجّة) ثم جلس سليمان على سريره فلمّا دخلت الصرح كشفت عن ساقيها لأنها ظنت أنّ في طريقها الماء، فقال لها سليمان: إنّه صرح ممرد من قوارير (زجاج). وهذا شيء عظيم لا عهد لأهل اليمن بمثله.

وقد أراد سليمان أن يظهر لها من دلائل عظمته وسلطانه ما يبهرها، وأن ترى بعينيها ما لم تره بالأحلام. . وهو أن يأتي بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح، فأمر جنوده بأن يخبروه عن شخص قوي ليأتيه بعرش بلقيس، فانتدب له عفريت من الجن وأخبره بأنه قادر على المجيء به في مدة قصيرة لا تتجاوز نصف النهار، وكان هناك رجل من أهل العلم والإيمان، مشهور بالولاية، قال لسليمان: ﴿أنا آتيكَ بِهِ قبلَ أنْ يرتدّ إليكَ طرفُكَ﴾ أي: في طرفةِ عين، وإذا بالعرش قد حضر وهذا الرجل هو (آصف بن برخيا) كما يذكر المفسّرون وهو ابن خالة سليمان، وهو من أهل الولاية والصلاح، وقد كان هذا من كراماته، والكرامات لأولياء الله ثابتة، لا ينكرها إلّا مكابر، قال في الجوهرة[2]: «وأثبِتَنْ للأولياء الكرامة: ومَنْ نَفَاهَا فانبِذْن كلامه». ويميل بعض المفسرين إلى أنّ الذي أتى بعرشها هو (سليمان) عليه السلام نفسه ويجعل نقل العرش معجزة لسليمان، وقد رد هذا القول السهيلي وابن كثير، وقال: إنه غريب جداً، لأن سياق الكلام لا يؤيد هذا الرأي[3].

---

(١) سورة النمل: الآيات (٢٠ ــ ٣٧).
(٢) انظر: شرح جوهرة التوحيد للشيخ اللقاني.
(٣) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/٣٦٧.

وقد أمر سليمان أن يغير بعض معالم العرش ليمتحن بها قوة ملاحظتها وانتباهها فلمّا جاءت فوجئت بأول ظاهرة عجيبة فعُرِض عليها عرشُها وقيل لها: (أهكذا عرشك؟) فأجابت: كأنه هو، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها، لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب. ولمّا رأت هذه الدلائل الباهرة، والخوارق العجيبة أعلنت إسلامها، وتبرأت مما كانت عليه هي وقومها من ضلال فقالت: ﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسيْ وأسلمتُ مع سليمانَ للَّهِ ربِ العالمينَ. . .﴾ اقرأ هذه الآيات الكريمة في تتمة القصة:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فتنة سليمان عليه السلام:

يخترع بعض المغرَمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة صورة عجيبة غريبة لفتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم إشارة خاطفة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ . . .﴾.

ويحكون بعض الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان حول (خاتم

سليمان) وأنه كان يلبس الخاتم فيحضر إليه الجانّ والعفاريت، ثم إنَّ الخاتم ضاع وألقي في البحر ففقد سليمان ملكه، وجلس الشيطان بدل سليمان على كرسي الملك، إلى آخر ما هنالك من أباطيل تتنافى مع الرسالة والنبوّة ولا يقبلها عقل ولا نقل، وقد ردّها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي، والبيضاوي، وغيرهم من العلماء الأجلّاء.

قال ابن كثير: (وقد أورد بعض المفسرين آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثيرٍ منها نكارة شديدة[1].

ولعلّ (الفتنة) المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده، حيث إن سليمان ابتلي بمرض شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح (ثمّ أناب) أي رجع إلى حالة الصحة، وهذا ما اختاره الفخر الرازي من الوجوه التي ذكرها. أو المراد فتنته بكلمته التي قال فيها لأطوفن على مائة امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة منهن جاءت بشق رجل (أي نصف إنسان) فوضع على كرسيه، فلما رأى ذلك رجع وأناب إلى الله، والحديث قد مر سابقاً وهو مرويٌ في الصحاح، وقد مال إلى هذا الرأي البيضاوي والنسفي وغيرهما.

وعلى كل حال فإن ما ورد في قصة الخاتم، كلُّه باطل وبهتان، وقد قال النسفي رحمه الله: «وأمّا ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود»[2].

وفاة سليمان عليه السلام:

عاش سليمان عليه السلام ٥٢ سنة، وقد لبث في الملك ٤٠ سنة على الرأي الراجح الذي ذكره ابن (إسحٰق) ثم توفي عليه السلام، وكان أمر وفاته حدثاً

(١) راجع: الجزء الرابع من تفسير ابن كثير من الصفحة ٣٧ إلى ٤٠

(٢) انظر: تفسير النسفي ٤/٤٢.

غريباً، لم تعلم به الإنس ولا الجن حتى بعد مرور سنة على الوفاة، وذلك بعد أن أكلت «الأَرَضَةُ» عصاه فخر على الأرض، وتحقق الناس من موته، وقد دخل معبده فمات وهومتوكىءٌ على العصا... روى ابن كثير، عن وهب بن منبّه، أنه قال: إن (سليمان) عليه السلام قال لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بقبضِ روحي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أُمِرْتُ بك، فدعا الشياطين فبنَوا عليه صَرْحاً من قوارير له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، فدخل عليه ملك الموت فقبضَ روحه وهو متوكٍ على عصاه، والجنّ تعمل بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حيّ، قال: فبعَثَ اللَّهُ دابةَ الأرض إلى منسأته (يعني عصاه) فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا، خرّ على الأرض فلما رأت الجن ذلك تبيّنوا ﴿أنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1]. قال تعالى إشارة إلى حادثة موته:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهنا إشارة لطيفة وهي أنّ الجن كانت توهم الناس بمعرفة الغيب، فلمَّا مات سليمان ولم يعلموا بموته وهم في أعمالهم الشاقة التي كلّفهم بها سليمان، اتضح الأمر بكذب دعواهم، وقد دفن سليمان في بيت المقدس رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنه في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر.

* * *

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/٥٣٨.

إلياس عليه السلام

ـ ١٥ ـ

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

من سورة الصافات: الآيات (١٢٣ ـ ١٢٥)

ذِكْرَه في القرآن الكريم:

ذُكِر اسم (إلياس) عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن في آية من الأنعام، وفي آيتين من الصافّات، أولاهما ذكر فيها لفظ (إلياس) والثانية ذكر فيها لفظ (إلياسين) قال تعالى: ﴿سلامٌ على إلْياسين﴾، قال ابن كثير: أي إلياس والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة، وتبدلها من غيرها، كما تقول: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين، وإلياس وإلياسين[1].

نَسَبه عليه السلام:

قال علماء النسب هو: (إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هٰرون) هذا ما ذكره المؤرخ ابن جرير الطبري في تاريخه واختاره، وذكر غيره نسباً آخر يختلف بعض الشيء عما ذكره ابن جرير، ولكن الجميع متفقون على أنه من ذرية (هٰرون) عليه السلام إلى أنْ ينتهيَ نسبه صاعداً إلى إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم أجمعين، ومن المقطوع به أنه من أنبياء بني إسرائيل.

(١) البداية النهاية ١/ ٣٣٩.

دعوته عليه السلام:

جاء في تاريخ الطبري عن ابن إسحق ما ملخصه:

«إنّ إلياس عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى نبذ عبادة الأصنام، والاستمساك بعبادة الله وحده، رفضوه ولم يستجيبوا له، فدعا ربه فقال: اللهمّ إن بني إسرائيل قد أبَوا إلاّ الكفر بك والعبادة لغيرك، فغيّر ما بهم من نعمتك، فأوحى الله إليه: إنّا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك، فقال إلياس: اللهمّ فأمسك عليهم المطر، فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد الناس جهداً شديداً، ولمّا دعا عليهم استخفى عن أعينهم، وكان يأتيه رزقه حيث كان، فكان بنو إسرائيل كلّما وجدوا ريح الخبز في دار قالوا: هنا إلياس فيطلبونه وينال أهلَ المنزل منهم شرٌ، وقد أوى ذات مرة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل، لها ابن يقال له (اليسع بن أخطوب) به ضرّ فآوته وأخفت أمره فدعا ربه لابنها فعافاه من الضر الذي كان به، واتّبع (إلياس) وآمن به وصدّقه ولزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب وكان (إلياس) قد أسنّ وكبر، وكان (اليسع) غلاماً شاباً ثمّ إن (إلياس) قال لبني إسرائيل: إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله أن يفرّج عنكم، فأخرجوا أصنامهم ومحدثاتهم فدعا الله لهم ففرّج عنهم وأغاثهم، فحييت بلادهم ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا عليه ولم يستقيموا فلما رأى (إلياس) منهم دعا ربه أن يقبضه إليه فقبضه ورفعه، ثمّ إنّ الله أرسل إليهم (اليسع) بعد إلياس[1].

ويذكر (ابن كثير): أن رسالته كانت لأهل (بعلبك) غربي دمشق، وأنه كان لهم صنم يعبدونه يسمى (بعلاً) وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري الجزء الثاني.

ويذكر بعض المؤرخين أنه عقب انتهاء ملك (سليمان بن داود) عليه السلام وذلك في سنة ٩٣٣ قبل الميلاد انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى قسمين:

الأول: يخضع لملك سلالة (سليمان) وأول ملوكهم (رُحْبَعام بن سليمان).

الثاني: يخضع لأحد أسباط (أفرايم) بن يوسف الصديق، واسم ملكهم (جُرْ بعام).

وقد تشتّت دولة بني إسرائيل بعد (سليمان عليه السلام) بسبب اختلاف ملوكهم وعظمائهم على السلطة، وبسبب الكفر والضلال الذي انتشر بين صفوفهم، وقد سمح أحد ملوكهم وهو (أخاب) لزوجته بنشر عبادة قومها في بني إسرائيل، وكان قومها عباداً للأوثان فشاعت العبادة الوثنية، وعبدوا الصنم الذي ذكره القرآن الكريم واسمه (بعل)، فأرسل الله إليهم (إلياس) عليه السلام الذي تحدثنا عن دعوته.

فلمّا توفي (إلياس) عليه السلام أوحى الله تعالى إلى أحد الأنبياء واسمه (اليسع) عليه السلام ليقوم في بني إسرائيل، فيدعوهم إلى عبادة اللّهِ الواحد القهّار.

* * *

اليسع عليه السلام

- ١٦ -

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ . . . ﴾.

من سورة صٓ: الآية (٤٨)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر (اليسع) عليه السلام في آيتين من القرآن الكريم، في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وفي سورة (صٓ) وهي الآية التي صدّرنا بها الكلام على هذا النبي الكريم.

نَسَبه عليه السلام:

جاء في تاريخ الطبري حول ذكر نسبه أنه: (اليسع بن أخطوب) ويقال: إنه ابن عم إلياس النبي عليهما السلام، وذكر الحافظ ابن عساكر نسبه على الوجه الآتي: (اسمه أسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف الصدّيق عليه السلام).

وهو من أنبياء بني إسرائيل، وقد أوجز القرآن الكريم الحديث عن حياته فلم يذكر عنها شيئاً وإنما اكتفى بعدّه في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً..

دعوته عليه السلام:

قام بتبليغ الدعوة بعد انتقال (إلياس) إلى جوار الله، فقام يدعو إلى الله مستمسكاً بمنهاج نبيّ الله إلياس وشريعته، وقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة فقتلوا الأنبياء وشرّدوا المؤمنين فوعظهم (اليسع) وخوّفهم من عذاب الله ولكنهم لم يأبهوا بدعوته ثم توفاه الله وسلّط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب كما قص علينا القرآن الكريم في قوله تقدّست أسماؤه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

ويذكر بعض المؤرخين أن دعوته ظهرت في مدينة تسمى (بانياس) إحدى مدن الشام، ولا تزال حتى الآن موجودة وهي قريبة من بلدة اللاذقية، والله أعلم.

* * *

يونس عليه السلام

ـ ١٧ ـ

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

من سورة الصافّات: الآيات (١٣٩ ـ ١٤١)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر يونس عليه السلام باسمه في القرآن الكريم أربع مرات في سورة (النساء والأنعام، ويونس، والصافّات) وذكر بالوصف في موضعين حيث لقبه الله (بذي النون) أي الحوت في سورة الأنبياء في قوله تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ . . .﴾.

وبلفظ صاحب الحوت في سورة القلم في قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ . . .﴾.

فيكون قد ذكر في القرآن ست مرات، أربع مرات بالاسم، ومرتين بالوصف.

نَسَبه عليه السلام:

لم يذكر المؤرخون نسباً ليونس عليه السلام، وإنما اتفقوا على أن اسمه (يونس بن متّى) قالوا: (ومتّى) هي أمه ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير (يونس وعيسى) عليهما السلام، ويسمى عند أهل الكتاب (يونان بن أمتاي) ويونس عليه

السلام من بني إسرائيل، ويتصل نسبه بـ (بنيامين) أحد أولاد يعقوب عليه السلام وهو أخو يوسف الشقيق.

دعوته عليه السلام:

أرسله الله تعالى إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل بالعراق، وكان أهل نينوى قد دخلت إليهم الوثنية، وانتشرت فيهم عبادة الأصنام، ولهم صنم يسمونه (عشتار).

فذهب يونس عليه السلام من بلاد الشام إلى (نينوى) فدعاهم إلى الله عز وجل، فكذّبوه ولم يستجيبوا لدعوته، شأن أكثر أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فبقي معهم يذكّرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله، ولكنّه لم يلق منهم إلاّ آذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً، فضاق بهم ذرعاً، ثمّ أوعدهم بالعذاب إنْ لم يؤمنوا، فلمّا طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم غاضباً عليهم، متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث، ويظهر أن قومه توعّدوه أيضاً وغضبوا منه ولاحقوه فأبق فاراً منهم، فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج، وظنّ أنّ الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج ولنْ يضيّق عليه بسبب تركه للقرية وهجره لأهلها قبل أن يؤمر بالخروج، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وذا النون إذْ ذهبَ مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه...﴾ الآية. فهو قد ذهب مغاضباً لقومه لا مغاضباً لربه فإنّ ذلك معصية لله وهو يتنافى مع (عصمة الأنبياء) وقد وضحنا ذلك مفصلاً في (بحث العصمة) فارجع إليه هناك.

قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف: فلما خرج من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة. وندموا على ما كان فيهم مع نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثمّ عجّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، وجأرت الأنعامُ والدواب، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته

ورحمته عنهم العذاب الذي دار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، ولهذا قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ . . .﴾.

يونس في جوف الحوت:

أما يونس عليه السلام فإنه حين ترك قومه سار حتى وصل إلى شاطىء البحر فوجد سفينة على سفر فطلب من أهلها أن يركبوه معهم، فتوسّموا فيه خيراً فأركبوه، ولما توسطوا البحر هاج بهم واضطرب، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب، فاستهموا فيما بينهم على أنّ من وقع عليه السهم ألقوه في البحر، فوقع السهم على (يونس) فسألوه عن شأنه، وعجبوا من أمره وهو التقي الصالح فحدّثهم بقصته، فأشفقوا أن يلقوه في البحر، وأرادوا الرجوع به إلى الساحل فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله، فألقوه فالتقمه حوت عظيم بأمر الله، وسار به في الظلمات في حفظ الله وتأديبه، وتمت المعجزة فقد أوحى الله إلى الحوت أن لا يصيب من يونس لحماً، ولا يهشم له عظماً، فحمله الحوت العظيم وسار به في عُبَاب البحر حيّاً يسبّح الله ويستغفره، وينادي في الظلمات ﴿أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين﴾ فاستجاب الله له ونجّاه من الغم، ثم أوحى الله إلى الحوت أن يقذف به في العراء على ساحل البحر فألقى به وهو سقيم، وقد مكث في جوف الحوت ثلاثة أيام بلياليها، ثمّ وجد نفسه في العراء سقيماً هزيلاً، فحمد الله على النجاة، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فأكل منها واستظل بظلها، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه، وعلم (يونس) أنّ ما أصابه تأديب رباني محفوف بالمعجزة حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً لهم، بدون إذنٍ صريح من الله له، وإنْ كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكنّ مثل هذا الاجتهاد إنْ قُبِل من الصالحين العاديين، فإنه لا يقبل من المرسلين المقرّبين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل

إقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ . . .﴾.

ولمّا قدر يونس على المسير عاد إلى قومه فوجدهم مؤمنين بالله تائبين إليه منتظرين عودة رسولهم ليأتمروا بأمره ويتبعوه فلبث فيهم يعلّمهم ويهديهم، ويدلهم على الله، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم.

ومتّع الله أهل (نينوى) في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم وبعده آمنين مطمئنين إلى حين، ثمّ بعد ذلك لمّا أفسدوا وضلوا سلّط الله عليهم من دمّر لهم مدينتهم فكانت أحاديث يرويها المؤرخون ويعتبر بها المعتبرون.

وكان عدد القوم الذين بعث إليهم يونس عليه السلام مائة وعشرين ألفاً على رواية ابن عباس، لأن الله تعالى قال: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ وقد ورد في ذلك بعض الآثار، والله تعالى أعلم.

* * *

(١) أخذاً من كتاب العقيدة الإسلامية للأستاذ عبد الرحمن حبنكة.

زكريا عليه السلام

ـ ١٨ ـ

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

من سورة الأنبياء: الآية (٨٩)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر اسم زكريا عليه السلام في القرآن الكريم ثماني مرات، في كل من السور الآتية: (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء) وذكرت قصته مفصّلة في سورتيْ (آل عمران، ومريم) أمّا في مريم فمن بداية السورة الكريمة إلى الآية الخامسة عشرة منها في قوله تعالى: ﴿ كهيعص، ذِكْرُ رحمةِ ربّكَ عبدَه زكريّا. إذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفياً. . . ﴾الآيات،وهو على وجه القطع من رسل بني إسرائيل لأنه من ذرية (سليمان بن داود) الذي يتصل بـ (يعقوب) عليه السلام المسمّى (إسرائيل) وهو أحد الرسل الذي يجب الإيمان بهم تفصيلاً.

نَسَبه عليه السلام:

لم يذكر المؤرخون له نسباً متصلاً موثوقاً، بيد أنّ الحافظ ابن عساكر في كتابه «التاريخ المشهور» قد ذكر له نسباً طويلاً مكوناً من أربعة عشر أباً حتى وصل إلى (سليمان بن داود) عليه السلام ونحن نوجزه على الشكل الآتي: (زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان. . . إلى أن يصل إلى رحبعام بن سليمان بن داود).

ويذكر الشيخ النجار في كتابه قصص الأنبياء أنه يوجد زكريا آخر، غير زكريا

obeikandi.com

(والد يحيى) ليس له قصة في القرآن الكريم أصلاً وهو (زكريا بن برخيا) ويقول: هذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى، وكان في زمن (داريوس) أي قبل زمن المسيح بحوالي ثلاثة قرون، وهو الذي تكلم في كتابه من الفصل التاسع عن ولاية (عمر بن الخطاب) وغلبه على (أورشليم) يعني القدس ودخوله إليها منصوراً وادعاً راكباً على حماره، والنصارى يأوّلونه بالمسيح، واليهود يأوّلونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال. . .)[1].

متى كانت رسالته؟:

قبيل ميلاد السيد المسيح بن مريم عليه السلام بعث الله (زكريا) عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، فقام يدعوهم إلى الله، ويخوفهم عذابه، في وقت اشتد فيه الفسق والفجور وانتشرت المنكرات، وكثرت المعاصي، وطغت على الأمة الإسرائيلية موجة عنيفة من التفسخ والتحلّل، وطغيان المادية، حتى نَسوا الله والدار الآخرة، وتسلّط على الحكم ملوك ظلمة جبابرة يعيثون في الأرض فساداً، ويفعلون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، لا يراعون حرمة لنبيّ، ولا قدسية لدين، دينُهم ما يوحي إليهم به شيطانهم، وعبادتهم ما تشتهيه أهواؤهم، وقد تسلّطوا على الصالحين والأتقياء والأنبياء حتى سفكوا دماءهم، وكان أعظمهم فتكاً وإجراماً هو (هيرودس) حاكم فلسطين الذي أمر بقتل (يحيى بن زكريا) وقدم إليه رأسه في طبق والدم ينزف منه، إرضاء لشهوة عشيقته كما سنبينه إن شاء الله عند الحديث عن يحيى عليه السلام.

وقد لقي (زكريا) عليه السلام من الحكام والجبابرة، وبني إسرائيل كل عَنَت ومشقة، وكل جهد وبلاء، وناله من أذاهم الشيء الكثير وتوالت عليه الأهوال والشدائد، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً، ولم يعد به طاقة لتحمل الأذى والمخاطر، وخشي على بني إسرائيل أنْ يضلّوا ويُفتنوا، فطلب من ربّه أن يعينه بولد

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٢٦٨.

يواسيه في شيخوخته، ويخلفه في تبليغ الرسالة، لا يتركه وحيداً فريداً يقاسي في هذه الحياة المتاعب والآلام، قال تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

ولادة يحيى بن زكريا:

كانت رسالة نبي الله زكريا عليه السلام إلى بني إسرائيل تمهيداً وإيذاناً بقرب ميلاد السيد الأكرم، والنبي الأعظم «عيسى بن مريم» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، ومن المعلوم أنّ السيد المسيح «عيسى بن مريم» هو آخر أنبياء بني إسرائيل، لذلك فقد بعث الله بين يديه نبيين كريمين هما «زكريا» وولده «يحيى» عليهما الصلاة والسلام يحوطانه ويرعيانه منذ ولادته إلى حين اكتمال شبابه، وكانت رسالتهما إيذاناً ــ كما تقول الأناجيل ــ بقرب اقتراب ملكوت السموات.

وقد كان زكريا قبل أن يكرمه الله بالرسالة، ويختاره لإنقاذ بني إسرائيل من الشقاوة والضلالة، من كبار (الربّانيّين) الذين لهم شركة في خدمة الهيكل ثمّ نبّأهُ الله، وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل، وكان (عمران) والد مريم إمامهم وكبيرهم، والكاهن الأكبر فيهم فلمّا توفي (عمران) كان الكافل لابنته (مريم) هو زكريا عليه السلام وهو زوج خالتها، وقد كان يرى من عجائب قدرة الله تعالى في حفظ هذه السيدة البتول ما يبهر العقل، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم طرفاً من هذا في قوله تعالى:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ . . .﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٨٩ ــ ٩٠).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٧).

كان زكريا عليه السلام إذا دخل على مريم معبدها يجد عندها من الرزق ما لا يوجد مثله في البلد، أو عند سائر الناس، ويكرمها الله بأنواع من الإكرام، من حيث لا تحتسب، فيسألها زكريا في دهشة واستغراب: ﴿أنى لَكِ هَذَا﴾ فتجيبه: ﴿هو من عند الله﴾!!.

وكان (زكريا) عليه السلام قد تقدّمت به السنّ، وَوَخَطَه الشيبُ، وبلغ من الكبر عتياً، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، فلمّا رأى من كرامات الله تعالى لمريم، ومن آياته الباهرات، ما يدهش ويحيّر، طمع في فضل الله ورحمته فطلب من ربه أن يرزقه الله غلاماً تقياً، يرثه في النبوة والهداية لبني إسرائيل، ويجعله من العباد الصالحين: ﴿هنالِكَ دَعَا زكريّا ربّه قالَ ربِّ هبْ لي منْ لَدُنْكَ ذريّةً طيّبةً إنكَ سميعُ الدعاء...﴾ وقد كان عمره حين طلب الولد تسعاً وتسعين سنة، وعمر زوجته ثمان وتسعون سنة، ولم يكن طلب (زكريا) للولد لمجرّد حبه للبنين، ولكنه رجا ربه أن يرزقه الولد ليخلفه في بني إسرائيل وليقوم بأعباء الدعوة التي حملها أبوه وقد كان يخشى من بعد وفاته على بني إسرائيل أن يتولى أمرهم في شؤون الدين الموالي من الجهلة والفساق، ومن ليس في قلبه تعظيم لشعائر الدين، فيعملوا بما لا يوافق شرع الله وطاعته، ولذلك سأل ربه الولد، وناداه نداء خفياً، لا يسمعه إلا من يسمع الصوت الخفيّ، ويعلم القلب النقيّ، وطلب منه أن يكرمه بولد برّ تقي فاستجاب الله دعاءه وأجاب نداءه، ورزقه على الكبر غلاماً زكياً هو (يحيى) عليه السلام، من امرأته العاقر، التي لم تكن في حال صباها تلد، فكيف بها وقد أصبحت في سن الهرم والشيخوخة؟ ولكنها قدرة الله التي تفعل الأعاجيب وتأتي بالخوارق، وتجيب دعوة المضطر إذا دعاه، اقرأ الآيات الكريمة في سورة مريم:

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ . . .﴾.

ولد لزكريا ذلك الولد البارّ، الذي رُزقه على الهرم والشيخوخة من زوجته (أشياع بنت عمران) أخت مريم بنت عمران، وعاش في كنف والده عيشة البر والتقى، ثم كانت الفتنة الكبرى حين ذُبح (يحيى) قرباناً لأهواء أهل الضلال، في حياة أبيه الشيخ الكبير الوقور، الرسول النبي الصالح، الذي لقيَ بعد ذلك حتفه على أيدي الظلمة من الحكام، وذاق نفس الكأس الذي ذاقه ولده، فقُتِلَ زكريا عليه السلام ــ على ما يذكر بعض المؤرخين ــ نشراً بالمنشار، ولقي وجه ربه شهيداً مرضياً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* * *

يحيى عليه السلام

ـ ١٩ ـ

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ ﴾.

من سورة مريم: الآيتان (١٢ ـ ١٣)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر اسم يحيى عليه السلام في القرآن الكريم في أربع آيات في كل من السور الآتية: (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء) وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بالثناء العاطر، ووصفه بالبرّ والتقوى، والصلاح والاستقامة فقال في شأنه:

﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ . . . ﴾.

وأعطاه الله النبوة وهو ابن ثلاثين سنة، كما قال تعالى: ﴿وآتيناه الحكمَ صبياً﴾ وجعله سيداً حصوراً بعيداً عن مقارفة المنكرات والشهوات، كما قال تعالى ﴿وسيّداً وحصوراً ونبيّاً منَ الصّالِحِينَ﴾.

نَسَبه عليه السلام:

هو يحيى بن زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان. . إلى أن يصل نسبه إلى نبي الله (سليمان بن داود) عليه السلام وهو من سبط يهوذا بن يعقوب لأن داود عليه السلام هو من سبط (يهوذا) كما هو محقق عند علماء أهل النسب.

ولادته عليه السلام:

ولد يحيى عليه السلام قبل مولد المسيح عيسى بن مريم بثلاثة أشهر، وعاصره وعاش معه فترة طويلة من الزمن، ورافق أطوار دعوته عليه السلام، وقد نشأ يحيى ـ كما بشّر الله ـ نشأة صلاح وتُقَى وطُهْر ونقاء، بعيداً عن مظاهر الترف والنعيم فكان في شبابه يأوي إلى القفار، ويقتات بالجراد، ويكتفي بما يسهله الله له من الرزق، وكان كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى، روى مجاهد قال: (كان طعام يحيى بن زكريا العشب، وإنه كان ليبكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القرّ على عينيه لخرقه). وروى ابن عساكر: أنّ أبويه خرجا يوماً في طلبه فوجداه عند (بحيرة الأردن) فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً، لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل.

وقد آتاه الله الحكم صبياً، وأقبل على معرفة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالماً بارعاً متبحّراً، ومرجعاً يرجع إليه في الفتاوى الدينية، ثم وافته النبوة والرسالة قبل أن يبلغ من العمر ثلاثين سنة. وخاطبه الله تعالى بقوله:

﴿يا يحيى خُذ الكِتَابَ بقُوّةٍ﴾.

روي عن خيثمة أنه قال: (كان عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا ابنيّ خالة، وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر[1] ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم، ولا أمة ولا عبد، ولا مأوى يأويان إليه، أينما جنّهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أستطيع إلاّ أن أغضب، قال: لا تَقْتَنِ مالاً، قال: أمّا هذه فعسى[2].

لقد عاش على الزهد، وكان كثير العزلة عن الناس، يأنس إلى البراري، ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، ويتغذّى بالجراد في بعض الأحيان وكان يخاطب نفسه فيقول: من أنعمُ منك يا يحيى؟!.

---

(١) الوبر: هو ما يخرج من الإبل من شعره، والصوف للغنم والوبر للجمل.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١/٥٢.

دعوة يحيى عليه السلام:

قام يحيى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى الله، ويبشّرهم باقتراب ملكوت السماوات، وكانت دعوته بالحكم والمواعظ الرقيقة. روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إن الله أمر (يحيى بن زكريا) بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطىء، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، فإمّا أن تبلغهنّ وإمّا أن أبلغهن، فقال، يا أخي أخشى إنْ سبقتني أنْ أعذّب، أو يُخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

وأولهنّ: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإنّ مَثَلَ من أشرك باللَّهِ، مَثَلُ من اشترى عبداً من خالص ماله بِوَرِقٍ (فضة) أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيّده، فأيكم يسّره أن يكون عبده كذلك؟ وإنَّ الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وأمركم بالصلاة: فإنّ الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام: فإنّ مَثَل ذلك كمثل رجلٍ معه صُرّة من مِسك في عصابة، كلّهم يجد ريح المسك، وإنّ خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة: فإنّ مَثَل ذلك كمثل رجل أسره العدّو فشدّوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه.

وأمركم بذكر الله: عز وجل كثيراً، فإنّ مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً

في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل»[1].

معنى التعميد عند أهل الكتاب:

يسمى يحيى عند علماء النصارى (يوحنا) ويلقبونه (المعمدان) لأنه كان قد تولى التعميد المعروف عند النصارى وهو التبريك بالغسل بالماء للتوبة من الخطايا، وقد ظهر يحيى في ناحية الأردن ينذر الناس بالتوبة، فخرج إليه أهل القدس والقرى القريبة من الأردن فكان يعمدّهم في النهر، وينذرهم باقتراب ملكوت السموات، وقد عمّد يحيى (المسيحَ عيسى) في نهر الأردن وبرّك عليه وهو ابن ثلاثين سنة. وقد سأله اليهود: هل هو المسيح؟ فقال: لا، فسألوه: هل هو النبي؟ فقال: لا، فقالوا له: لماذا تعمِّد إذا لم تكن المسيح ولا النبي؟ فقال: أنا صوتٌ صارخ من البرية: هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة[2].

لماذا قُتل يحيى عليه السلام؟

يروي المؤرخون في سبب مقتل يحيى بن زكريا عليه السلام أسباباً كثيرة أشهرها ما رواه ابن كثير وذكره الشيخ النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» وهو ما يلي:

كان حاكم فلسطين (هيرودس) وكان رجلاً شريراً فاسقاً، وكانت له ابنة أخ يقال لها: (هيروديا) بارعة الجمال فأراد عمها أن يتزوج منها، وكانت البنت وأمها تريدان هذا الزواج، فلمّا علم يحيى عليه السلام بذلك أعلن معارضته لأنّ هذا الزواج محرم في الشريعة عند أهل الكتاب كما هو محرم عند المسلمين.

فحقدت أم الفتاة على يحيى، وبيّتت له مكيدة قتل، فزيّنت ابنتها (هيروديا) أحسن زينة، وألبستها أفخر اللباس، وأدخلتها على (هيرودس) فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فقال لها: تمنّيْ عليّ!! فقالت له ــ كما علّمتها أمها ــ: أريد رأس

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٤٤، والترمذي رقم ٢٨٦٧ وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: كتاب العقيدة الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنّكة ص ٢١٦.

يحيى بن زكريا في هذا الطبق، فاستجاب لطلبها وأمر برأس يحيى، فقتل عليه السلام وهو في الصلاة وذبح كما تذبح النعجة، ثم قدم رأسه في طبق والدم ينزف منه فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها»[1].

هذه القصة تبين لنا مدى الظلم والطغيان الذي حلّ بحكام بني إسرائيل، حتى تجرّؤا على قتل الأنبياء، وسفك دماء الأبرياء من أجل شهوة طائشة أو في سبيل إرضاء رغبات أهل الفسق والضلال، المستهترين بحرمة الدين، وقدسية الشرائع السماوية. ولا عجب، فإنّ بني إسرائيل (اليهود) هم أوّل من سنّ هذه السنة السيئة وهي (قتل الأنبياء) حتى أصبح ذلك شعاراً لهم، ورمزاً لطغيانهم وضلالهم، فمن (يحيى) إلى (زكريا) إلى التآمر على (المسيح عيسى) إلى أنبياء لا يُحْصِي عددهم إلا الله سُفكت دماؤهم بدون ذنب على أيدي أعداء الله (اليهود الخبثاء) وأعداء الإنسانية في كل حين وزمان. وقد أخبرنا القرآن الكريم عن إجرام اليهود بقوله: ﴿ويسعونَ في الأرضِ فساداً واللَّهُ لا يحبُ المفسدينَ﴾. وقال تعالى في بيان قتلهم الأنبياء: ﴿أفكلّمَا جاءكُمْ رسولٌ بما لاتَهْوى أنفُسُكم استكبرتُمْ ففريقاً كذّبتُمْ، وفريقاً تقتلونَ﴾؟.

وقال تعالى: ﴿قُلْ فلمَ تقتلونَ أنبياءَ اللَّهِ من قبلُ إنْ كنتم مؤمنين؟﴾ وقال تعالى: ﴿ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ...﴾.

وفي حادثة مقتل يحيى عليه السلام قتل عدد كبير من العلماء الذين أنكروا على الحاكم طغيانه وظلمه ومنهم (زكريا) والد يحيى عليهما السلام، ويشير بعض المؤرخين إلى أنه نشر بالمنشار بعد مقتل ولده يحيى كما مرّ سابقاً.

ويروى عن سعيد بن المسيّب أنه قال: (لما قدم بختنصّر الشام إذا هو بدم

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٣٦٩.

يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه بما حدث له، فَقَتَل على دمه سبعين ألفاً فسكن...). وبذلك انتهى شأن يحيى عليه السلام بتلك المأساة المفجعة.

وروى الحافظ ابن عساكر، عن زيد بن واقد، أنه قال: (رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب فكانت البشرة والشعر على حالة لم يتغيّر، وفي رواية: كأنّما قُتِلَ الساعة).

أقول: ليس هذا بغريب فقد ثبت في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ اللَّهَ حرّم على الأرض أنْ تأكُلَ أجسادَ الأنبياء»[1].

وجاء تلاميذ يحيى وأخذوا جثته بعد قتله فدفنوها، ثمّ جاءوا إلى المسيح عيسى بن مريم وأخبروه بمقتل يحيى عليه السلام فحزن حزناً شديداً عليه، ثم جهر بدعوته وقام في الناس واعظاً، واتبعه خلق كثير إلى أن دبّر له اليهود مؤامرة لقتله واغتياله فرفعه الله إلى السماء ونجاه الله من كيدهم، كما مر عند ذكر حياته ﷺ.

* * *

هؤلاء هم الرسل الكرام من غير أولي العزم، ذكرنا حياتهم ودعوتهم بالتفصيل، وشيئاً من سيرتهم العطرة، وإذا ضممنا إليهم الرسل الخمسة من أولي العزم، مع أبي البشر آدم عليه السلام، يكتمل عددهم خمساً وعشرين نبياً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

● ● ●

(١) هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ١٠٤٧ والنسائي ٣/٩١ وإسناده صحيح، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٩/٢٦٥.

obeikandl.com

ردود على أباطيل

بعد صدور كتابي «النبوة والأنبياء» بخمسة عشر عاماً أو تزيد، أخرج طالب «متعالم» نشرةً ينتقد فيها كتاب النبوة والأنبياء، بأسلوبٍ يعرى عن أدب المناظرة وخلق المسلم النبيل الذي يعرف أصول الخطاب، والأدب الإسلامي الرفيع في التحدث مع الناس. هذا الطالب اسمه (محمد محمود أبو رحيّم) فلسطيني الجنسية، كان يدرس في جامعة أم القرى وتخرَّج مها وهو يحمل شهادة الدكتوراه، وقد أحبَّ أن يَظْهر ويُشْهر بالردِّ على كتابي النبوة والأنبياء الذي لاقى استحساناً طيباً عند جمهور السادة القراء، وطُبع عدَّة مرات، فأراد المتعالم أن ينال منه ومن مؤلفه، بالطعن فيه، والتجريح بكاتبه، بالزور والبهتان، ليظهر بمظهر الألمعيّ النابغ في علمه وانتقاده، وقوة فهمه وذكائه.

وحتى لا نحرم السادة القراء، من معرفة هذا الأدب الرفيع، الذي سلكه الطالب مع شيخ أساتذته الذي خرَّج الأجيال، وأفنى عمره في خدمة العلم والدين، نطلعكم على بعض الفقرات التي جاءت في نشرته، ثم طبعها في رسالةٍ في الكويت تحت عنوان «نظرات في كتاب النبوة والأنبياء» بعد أن هذَّبها وشذَّبها، ليوهم القارىء أنه يرغب في تصحيح الأخطاء التي وردت في الكتاب، وأن انتقاده ليس بدافع عداوة شخصية، أو انتصاراً لأحدٍ من الناس، إنما هو لمعرفة الحقِّ على حدِّ زعمه.. وقد اتهمني في هذه الرسالة باتهام فظيع شنيع، هو أنني رميتُ مريم عليها السلام بالزنى، وأنني كنت في كتابي هذا كحاطب ليل.

يقول الدكتور المتعالم: أصل كتاب «النبوة والأنبياء» محاضرات ألقاها الصابوني على طلبة كلية الشريعة.. وذاع صيتُ الصابوني بسببه، وبسبب غيره من الكتب.. وساق فيه من الإسرائيليات ما تقشعر منه الأبدان.. ومن الأخبار الواهية ما لا يصلح به الحال.. وكان يبتر أقوال المؤرخين. وبالجملة فقد كان الصابوني حاطب ليل.

ثم يقول في المقدمة نفسها بعد سطور: والتزمتُ الأدب في التعبير، ثم خلص بعد المقدمة بنتيجة هي: أنني قذفتُ مريم بالزنى، ويجعلني مع اليهود في صفٍ واحد على السواء... إلى آخر تلك الاتهامات الباطلة، والافتراءات الشنيعة التي لا تصدر من شخص عادي، فضلاً عن طالب في مرحلة الدكتوراة في قسم العقيدة الإسلامية، يريد أن يكون في المستقبل داعية من دعاة الإسلام.

ولا عجب أن نرى مثل هذه الأساليب الملتوية، في صفوف بعض الشباب اليوم، فإن من يعلم شذوذ بعض من تلقى العلم على أيديهم، لا يستغرب مثل هذه الألاعيب والافتراءات التي اشتهروا بها، وفنون الأكاذيب التي درجوا عليها، فهم لا يتورعون عن الطعن في أهل العلم، والتجريح في كرامة إخوانهم المؤمنين، بشتى الطرق والأساليب، مرَّة باسم الرد العلمي، وأخرى باسم الغيرة على مذهب السلف، وما هم من أخلاق السلف في فتيلٍ ولا قطمير!!

بهتان صريح

لقد ذكرتُ في قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ص ٢٤٧، نسبه في الإسلام، ونسبه عند النصارى، فقلت ما نصُّه: هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه، آخرُ أنبياء بني إسرائيل، اسمه (عيسى) ولقبُه (المسيح) ويكنّى (ابن مريم) نسبةً إلى أمه (مريم بنت عمران) لأنه وُلد من غير أب... وهو عبدُ الله ورسولُه، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة «التي أحصنت فرجها، وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين».

وقلتُ أيضاً في صفحة ٢٤٩ تحت عنوان: من هي مريم؟ ما نصُّه:

«هي مريم بنتُ عمران، الصدِّيقة البتول، العذراء الطاهرة، التي تربت في

حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة، والتي أثنى الله عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة: ﴿ومريم ابنةَ عمرانَ التي أحصنتْ فرجها. . .﴾ الآية. وكان والدها (عمران) رجلاً عظيماً، وعالماً جليلاً من علماء بني إسرائيل، وكانت زوجته ـ كما ذكر ابن إسحٰق ـ لا تحبل، فنذرت إن حملت لتجعلن ولدها محرّراً لله تعالى لخدمة بيت المقدس. . .إلخ. وذكرتُ نسب السيد المسيح في إنجيل (لوقا) وإنجيل (متّى) كما تذكره كتبهم المقدسة، ثم قلت: ومن الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً في نسب السيد المسيح، بين هذه الأناجيل، وتناقضاً واضحاً لا يمكن معه التوفيق، مما يجعلنا نجزم بأن أهل الكتاب، يكتبون بلا تحقق، ويؤمنون بلا تثبُّتٍ، ويُصدِّقون بكل ما يُلقى عليهم من رؤساء الدين، وأن ما في التوراة والإنجيل قد دخل إليه التحريف والتبديلُ، كما نصَّ عليه القرآن الكريم. . .إلخ، كما قلت بعد سطور:

ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات، في كتاب مقدَّس، يؤمن به مئات آلاف الملايين من النصارى، اللهم إلا أن يكون ذلك من تحريف رؤساء دينهم، الذين أكَّد القرآن الكريم تحريفهم للكتب المقدسة!! فكيف يزعم هذا «الكاتب المتعالم» والدكتور الحصيف أنني لم أردَّ تلك القصة بكلمة واحدة، ولم أبيِّن خطورة روايتها، ثم نقول: وما الفرق بين إثبات الصابوني، واتّهام اليهود لها بالزنى بيوسف النجار؟!.

﴿سبحانك هذا بهتانٌ عظيم﴾.

القصة أوردها الحافظ ابن كثير

إن القصة التي ينتقدها، ويزعم أن فيها رمياً لمريم بالزنى، ذكرها الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» الجزء الثاني صفحة ٦٥ ونقلتها عنه باللفظ، ويستطيع أن يراها القارىء في كتابي «النبوة» وفي كتاب ابن كثير «البداية والنهاية» وهذا هو النصُّ: «يُروى أن مريم لمَّا ظهرت عليها مخايلُ الحمل، كان أول من فَطِن لذلك رجل من أقربائها، يُدعى (يوسف النجار) وكان من العُبَّاد الصالحين ـ وكان

ابن خالها ـ فجعل يتعجَّبُ من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج، فعرَّض لها ذات يومٍ في الكلام فقال يا مريمُ: هل يكون زرعٌ من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجرٌ من غيرِ ماء، قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال لها: هل يكون ولدٌ من غير ذكر؟ قالت: نعم، إن الله خلق آدم من غير ذكرٍ وأنثى، قال: فأخبريني خبركِ، فقالت: إن الله بشَّرني بكلمةٍ منه «اسمه المسيح عيسى بن مريم» فعرف أنها بريئة، وأن الحمل الذي بها إنما كان بمشيئة الله وإرادته الحكيمة[1]؟.

هذه هي القصة فأين هو وجه الاتهام لها بالزنى مع يوسف النجار؟ وهل كان ابن كثير أيضاً قاذفاً لها بالزنى؟ كما اتهمني به هذا الدكتور المتعالم؟!.

صلة يوسف النجار بمريم صلة عبادة وتقوى

إن صلة يوسف النجار بمريم صلة قرابةٍ وتقوى وعبادة، وليست صله فاحشةٍ وزنى، وحتى النصارى لمَّا يذكرون صلتها بيوسف النجار لا يتهمونها بالزنى، إنما يقولون إنها كانت تسابقه العبادة والطاعة، وهي عندهم قدِّيسة بريئة من الفاحشة، ولهذا يقولون: «الحمل بلا دنس» والذين رموها بالزنى هم اليهود اللعناء، فكيف رضي سيادة الدكتور أن يصم شيخاً من شيوخ المسلمين بأنه رماها بالزنى، والله تعالى يقول: ﴿والتي أحصنتْ فرجها﴾ ألا يكون هذا الافتراء تكذيباً للقرآن العظيم؟ فكيف ساغ لك يا دكتور أن تتهمني هذا الاتهام الشنيع فتقول: «وما الفرقُ بين موقف النصارى من نسب المسيح، وموقف الصابوني في إثبات أن (يوسف النجار) خطيب أمه نقلاً عن إنجيل (لوقا) و (متَّى)؟.

لقد ذكرتُ في كتابي نَسَبه في الإنجيل، لأقيم الدليل والبرهان على تعارض هذه الأناجيل وتناقضها، وناقلُ الكفر ليس بكافر، فقد ذكر القرآن الكريم عن النصارى أنهم قالوا: المسيح هو «الله» بقوله تقدست أسماؤه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٦٥.

الله هو المسيح بن مريم﴾ ونقل عن اليهود قولهم ﴿وقالت اليهود يدُ الله مغلولة غُلَّتْ أيديهم ولُعنوا بما قالوا﴾ فكيف تجعلني في صف اليهود والنصارى لمجرد أنني ذكرت نسبه في الإنجيل لأرد عليه؟ ألا تتقي الله في هذا الافتراء والبهتان؟!

والذي لا يُؤتمن على كتاب ـ كما فعل الدكتور ـ كيف يؤتمن على أمةٍ، أو على تخريج الأجيال الذين نعدُّهم للمستقبل؟ وقد ردَّ الله كيد هذا الدكتور المتعالم، فهرب من المملكة قبل أن تصل إليه يد القضاء والعدالة، بعد أن رفعتُ شكوى عليه إلى المسؤولين، فخرج يجرُّ أذيال الخيبة والفشل، إلى بعض المناطق في الإمارات، ليكمل فيها طريقه في الفساد والإفساد، ولولا خشية افتتان بعض الناس باللقب الذي حصل عليه «لقب الدكتوراة» ما كنت لأردَّ عليه، بل أترك أمره إلى من يتولى جزاءه في يومٍ عصيب، لا يجد له فيه الظالم سنداً ولا نصيراً، ولكنني رأيتُ أن ألحق هذا الفصل «ردود على أباطيل» بكتابي هذا، حتى لا ينخدع الناس بأباطيل وافتراءات أمثال هؤلاء المتعالمين[1].

وسأقتصر في هذا الردِّ على الأمور والمسائل التي زعم أنها خطأ تؤثر في العقيدة على حسب زعمه، فأقول ومن الله أستمد العون:

أولاً: حول تزوج يعقوب عليه السلام بأختين:

قال الدكتور أبو رحيِّم:

١ ـ لم يذكر الصابوني مرجعاً لما ذكره وتبنَّاه، بل اكتفى بقوله: ذكر المؤرخون.

٢ ـ أغفل ما قاله المؤرخون بخصوص جمع يعقوب بين الأختين.

٣ ـ إن ما أقَّره الصابوني مخالف لشريعة الإسلام... إلخ.

والجواب: مراجعي في كتابي كله أوثقُ كتب التاريخ المعتبرة عند

---

(١) ردَّ عليه الأستاذان الفاضلان في جريدة الندوة الغرّاء، «صالح أحمد جمال» و«محمد أحمد جمال» في مقالين نُشرا فيها، وطالب سعادة الشيخ صالح جمال بمحاكمته وطرده من الجامعة لذلك الاتهام الشنيع الذي افتراه عليَّ، وقد بقي الدكتور أبو رحيِّم مصرَّاً على الاتهام بإخراجه رسالته التي طبعها باسم «نظرات في كتاب النبوة والأنبياء» لذلك جاء هذا الرد عليه.

المسلمين، لأن هذه أخبارٌ تاريخية يرجع فيها إلى أقوال علماء المسلمين المؤرخين، والمفسرين، وأنت تعرف هذا ولكنك مدلِّس مكابر، تخفي الحقيقة مع علمك بها، لتوهم خطأ الروايات، ولكن كما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

أما المراجع التي رويتُ عنها فهي الآتي:

١ ـ تاريخ الأمم والشعوب لابن جرير الطبري ١/٣١٩.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٧٢.

٣ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١/١٨٢.

وهذه مراجعي الأساسية في كل ما يتعلق بالأخبار التاريخية، عدا عما سواها من كتب التاريخ، والتفسير، والحديث، وقصص الأنبياء، ولا يُشترط أن أذكر عند كل خبرٍ أو جملة، المراجع كلها كما فعلتَ أنت في نشرتك الظالمة، لتوهم القراء أنك محقق كبير، وعالم نحرير، وجُلُّ ما فيها إنما هو «سفسطةٌ» وتشويش، كما سيرى القارىء الكريم.

ثانياً: الرواية التي ذكرتها ذكرها الطبري في تاريخه ١/٣١٧ ولكنه لم يعوّل عليها، بل ذكر ثلاثة نصوص تخالفها، وتؤكد أن (يعقوب) عليه السلام جَمَعَ بين الأختين في وقت واحد.

النص الأول: قال الطبري: (وإن يعقوب سار إلى خاله فخطب إليه ابنته (راحيل) وكانت له ابنتان (ليًا) وهي الكبرى، (وراحيل) وهي الصغرى، فقال: هل من مالٍ أزوجك عليه؟ قال يعقوب: لا، إلاَّ أني أخدمك أجيراً حتى تستوفي صداق ابنتك.. فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما وفَّى له شرطه دفع إليه ابنته الكبرى (ليًا) وأدخلها عليه ليلاً، فلما أصبح وجد غير ما شرط، فقال له يعقوب: غررتني وخدعتني، فقال له خاله: ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى؟ فهلمَّ فاخدمني سبع حجج أخرى فأزوجك أختها.. وكان الناس يومئذٍ يجمعون بين الأختين إلى أن بُعث موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة...) إلخ.

النص الثاني: قال الطبري ١/٣١٩: (فخرج يعقوب هارباً من أخيه العيص الذي توعده بالقتل، إلى خاله (لابان) ببابل، فوصل إليه، وزوّجه ابنتيه (ليًا) و(راحيل) وانصرف بهما وبجاريتيهما وأولاده الأسباط الاثني عشر إلى الشام منزل آبائه...) إلخ.

فما معنى قول الإمام الطبري: «انصرف بهما» هل أخرج التي ماتت من القبر حتى ذهب بها مع أختها؟ أم أنهما كانتا معه في سفره؟.

النص الثالث: وهو الواضح الصريح وقد ذكره الطبري ١/٣٢٠ حيث قال: (ثم إن يعقوب هويَ ابنة خاله ـ وكانت له ابنتان ـ فخطب الصغرى فأنكحها إياه على أن يرعى غنمه إلى أجل مسمى، فلما انقضى الأجل زفَّ إليه أختها (ليًا) قال يعقوب: إنما أردت (راحيل) فقال له خاله: إنا لا يُنكح فينا الصغيرُ قبل الكبير، ولكن ارع لنا أيضاً وانكحهما جميعاً ففعل، فلما انقضى الأجل زوَّجه (راحيل) أيضاً، فجمع يعقوب بينهما فذلك قول الله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما سلف﴾.

يقول: فجمع يعقوب بين (ليًا) و(راحيل)؟... إلخ. فهل هناك أصرح من هذا النصِّ الذي أيّده ابن جرير بالآية الكريمة مستدلاً بها على النسخ؟.

كلام ابن الأثير في تاريخه الكامل:

وأنا أذكر ما قاله ابن الأثير في الكامل ١/٧٢ حول تزوج يعقوب بالأختين معاً في النصِّ الآتي: «ثم إن يعقوب تزوَّج ابنتي خاله وجمع بينهما فلذلك قال الله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلاَّ ما قد سلف﴾ وَوُلِدَ له منهما، فماتت (راحيل) في نفاسها ببنيامين، وأراد يعقوب الرجوع إلى بيت المقدس، فأعطاه خاله قطيع غنم.. وأحبَّ يعقوب (يوسف) وأخاه (بنيامين) حباً شديداً ليُتمهما...»[1] إلخ.

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/٧٢.

كلام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:

ويقول الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ١/١٨٢ ما نصُّه:

«فلما قدم يعقوب على خاله أرض حرَّان، إذا له ابنتان، اسم الكبرى (ليًا) واسم الصغرى (راحيل) وكانت أحسنهما وأجملهما، فطلب زواجها فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين، فلما مضت المدة على خاله (لابان) صنع طعاماً وجمع الناس عليه، وزفَّ إليه ليلاً ابنته الكبرى (ليًا) وكانت ضعيفة العينين، قبيحة المنظر، فلما أصبح يعقوب إذا هي (ليًا) فقال لخاله: لم غدَرتَ بي وأنا إنما خطبتُ إليك (راحيل) فقال له: إنه ليس من سنّتنا أن نزوِّج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببتَ أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها، فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، وهذا وحده دليلٌ كافٍ على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليلٌ على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم»[1].

هذا نصُّ كلام المؤرخ، المحدث، المفسِّر، الحافظ ابن كثير، وبه استدل على وقوع النسخ في الشرائع السابقة، وأتى به بصيغة القطع والجزم، أفلا يكفي هذا النص وحده على جواز الجمع بين الأختين في شريعة يعقوب من شيخ المؤرخين والمفسرين؟ فكيف يزعم «أبو رحيِّم» أنني أتيت بالباطل والضلال؟.

«الجواب عن الشبهة الخامسة»

ما هذه العبقرية الفذَّة يا أبا رحيم؟ كيف تطلب أن تكون شريعتنا الإسلامية مطبقة على الأديان والشرائع السابقة؟ وما جاءت الشريعة الإسلامية إلا متأخرة، فكيف يحكم المتأخر على المتقدم؟ ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكمْ شِرْعَةً ومنهاجاً﴾، فالشرائع مختلفة بنص الآية الكريمة، ثم على هذا المنطق الغريب الذي طالعتنا به برأيك الفذّ الثاقب، يجب أن نقول:

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/١٨٢.

(أ) إن صنع التماثيل لسليمان عليه السلام كذب وافتراء لأنه محرَّمٌ في شريعتنا، فلا يمكن لنبي الله سليمان أن يصنع الحرام أو يرضى به، وأين تذهب بقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل..﴾؟.

(ب) إن السجود لغير الله حرام في شرعنا، فينبغي أن يكون سجود يعقوب وأبنائه ليوسف باطل وغير صحيح، لأنه يخالف شرعنا، وينبغي أن ننكر النص القرآني ﴿وخرُّوا له سُجَّداً﴾ أهذا هو منطق العباقرة في هذا الزمان؟.

«الردّ على الاعتراضات»

الجواب عن المسألة الأولى:

أولاً: زعم أبو رحيِّم أنني لم آت بدليل على وصية يعقوب لابنه يوسف أن يدفنه عند أبويه... إلخ.

والجواب عن ذلك: إن الدليل هنا لا يُؤخذ من الكتاب والسنة كما توهَّم، لأن هذه الأخبار سابقة على نزول القرآن، وإنما يُؤخذ من كلام الأثبات من المؤرخين المسلمين، ومن أقوال المفسرين والمحدثين، ومن علماء السيرة وغيرهم من علماء الإسلام.

روى الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ١/٢٠٥ قال: (وذكر ابن إسحٰق أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم تُوفي عليه السلام، **وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفنه عند أبويه إبراهيم وإسحٰق**، قال السُّديّ: فصبَّره وسيَّره إلى بلاد الشام **فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحٰق وجده «الخليل»**. عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً، وأخبرهم بما يكون من أمرهم، وبشَّر يهوذا بخروج نبيٍّ عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو «عيسى بن مريم».

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر يوسف الأطباء فطيَّبوه بطيب، ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا (حبرون) دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل عليه السلام.

أقول: ذكر الحافظ ابن كثير الرواية الثانية عن أهل الكتاب ولم يكذِّبها، ولم يردَّ عليها عملاً بقوله ﷺ فيما رواه البخاري عنه: «... وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». وانظر فتح الباري. وكذلك روى الطبري في تاريخه ١/٣٦٤: (ولما حضرتْ يعقوب الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحٰق).

ثانياً: دعواه أن هذه الوصية تعارضُ نصاً صحيحاً في السنة «ما قبض الله تعالى نبياً...» الحديث.

أقول أولاً: هل شريعتنا يجب أن تتفق مع ما سبقها من الشرائع والله تعالى يقول: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجاً...﴾؟.

وثانياً: لقد أغفلت يا سيد (أبو رحيِّم) ما قاله الإمام الترمذي نفسه عن هذا الحديث ــ وهذه خيانة للأمانة ــ فقد قال بعد ذكر الحديث ما نصُّه: قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، وعبد الرحمن بن أبي بكر المليكي يُضعَّف من قِبَل حفظه». انتهى. فالحديث ضعَّفه الترمذي فكيف تقول: صحيح؟. ثم اسمع ما قاله الأئمة الحُفَّاظ الأثبات عن هذا الحديث لتتحقق بنفسك من خطأ شيخك الألباني.

قال المناوي: الحديث ضعيفٌ لضعف ابن أبي مليكة.

وقال المباركفوري: إن ضعف الحديث لضعف عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي مليكة.

وقال الحافظ في التقريب: الحديث ضعيف، وقد قال الترمذي: يضعَّف من قِبَلِ حفظه.

فما قيمة تصحيح الشيخ الألباني له إذا كان أهل الاختصاص قد حكموا بضعفه لضعف راويه ولتعارضه مع الواقع؟ وانظر تحفة الأحوذي على الترمذي ٤/٩٨.

الجواب عن المسألة الثانية:

أولاً: لم أكن في كلامي على «وصية يوسف» جانياً أو راجماً بغير علم، بل كنت مقتفياً آثار الثقات من المؤرخين والمفسرين.

فقد ذكر شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تاريخه ١/٣٦٤ ما يلي:

(وكان دخول يعقوب مصرَ في سبعين إنساناً من أهله، وتقدَّم أنه أوصى إلى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحٰق، ففعل يوسف ذلك به، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر.

وأوصى يوسفُ أن يُحْملَ جسدُه حتى يُدفنَ إلى جنب آبائه، فحملَ (موسى) تابوت جسده عند خروجه من مصر معه). اهـ تاريخ الرسل والملوك للطبري.

ثانياً: وذكر المؤرخ الشهير العلاّمة ابن الأثير في كتابه «الكامل» في التاريخ ١/٨٨ ما يلي:

(ولما مات يعقوبُ أوصى إلى يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحٰق، ففعل يوسف فسار به إلى الشام فدفنه عند أبيه ثم عاد إلى مصر، وأوصى يوسفُ أن يُحمل من مصر ويدفن عند آبائه، فحمله موسى لمَّا خرج ببني إسرائيل وولد ليوسف (أفرايم) و (منشا).. اهـ من الكامل لابن الأثير ١/٨٨.

ثالثاً: وذكر الحافظ المفسّر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» ١/٢٠٦ ما يلي:

(ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاةُ،فأوصى أن يُحمل معهم إذا خرجوا من مصر، فيدفن عند آبائه، فحنَّطوه ووضعوه في تابوت، فكانَ بمصرَ حتَّى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي، هذا نصُّهُمْ فيما رأيتُه وفيما حكاه ابن جرير أيضاً، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة). انتهى من البداية.

هـذه يا سيـادة «الدكتـور اللامـع» أقـوال أئـمـة الـعـلـم «ابن جـريـر، وابن كثير، وابن الأثير» فماذا تريد بعد ذلك من أدلة نسوقها إليك؟.

أتريد أن نأتي لك بـدليل من الكتـاب والسنة على تلك الـوصية حتى يـطمئن قلبك؟ أم تعتقد أن هؤلاء الأئمة الأجلّاء جهلاء، ضالّون، مبتدعـون كما طـوّقت به عنقي؟ أما ذكري لكلمة «الرفـات» فهذا سبق قلم لم يكن مقصـوداً، وكان ينبغي أن يقال «الجثمان» أو «الجسد» كما قال ابن جرير وابن كثير، «وكفى المرءَ نُبْلاً أنْ تُعـدَّ معايبُـه».

رابعاً: دعواك من ذكري كلمة «الرُّفات» أن الصابوني يعتقـد أن الأرض تأكـل أجساد الأنبياء، دعوى باطلة لأنني أنا الذي نبهتـك إلى الحديث الشـريف: «إن الله حـرَّم على الأرض أن تأكـل أجساد الأنبيـاء» الذي ذكـرته في كتـابـي النبوة صفحـة (٣٩٣) فكيف تتهمَني هذا الاتهام الباطل؟

«الجواب عن المسألة الثالثة»

أولاً: لماذا لا ترجـع فتتحقَّقُ قبـل أنْ تَرُدَّ، لئلا ينكشف أمرك، أم أنهـا شهوة الهوى للكلام؟ والظهور على أكتاف الشيـخ أنك رددت عليه، فأنت عبقـريٌّ نابـغ؟ إن رواية الحافظ ابن عساكر قد ذكرها الحافظ ابن كثير، وذكـر قبلها ما يؤيدها فقال في كتابه البداية والنهاية ٢/٤٩ ما يلي:

«بيانُ سبب قتل يحيى عليه السلام»

«ذكروا في قتله أسباباً من أشهرهـا أن بعض ملوك ذلك الـزمان بـدمشق، كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه، أو من لا يحل له تزوجها، فنهاه يحيـى عليـه السلام عند ذلك، فبقي في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحبُّ منهـا استوهبت منـه دم يحيـى فوهبـه لها، فبعث إليـه من قتله وجاء بـرأسه ودمـه في طشتٍ إليهـا، فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيـل: بل أحبَّتـه امرأةُ ذلـك الملك، وراسلته فـأبـى عليها، فلمـا يئست منه

تحيَّلتْ في أن تستوهبه من الملك، فتمنَّع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت..

ثم ذكر ابن كثير في صفحة (٥٠) بسنده، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: (قدم بختنصَّر دمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه بأمره، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن، قال: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهو يقتضي أنه قُتل بدمشق، وأن قصة بختنصَّر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري، وروى الحافظ ابن عساكر، من طريق الوليد بن مسلم، عن زيد بن واقد، قال: رأيتُ رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيَّر، وفي رواية: كأنما قُتل الساعة). انتهى من كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

أقول: هذا ما ذكره أساطين المحدثين والمؤرخين، فلم هذا التشويشُ على المؤمنين؟ أم تظن أنك أعلى كعباً، وأوسع علماً، وأثقب فهماً، من الحافظ ابن عساكر والحافظ ابن كثير؟ اللهم إنا نعوذ بك من البهتان والغرور.

«الجواب عن المسألة الرابعة»

أولاً: يطلب السيد (أبو رحيّم) دليلاً من السنة على أن نوحاً عليه السلام قد دفن بالمسجد الحرام، وكذلك (إسماعيل) وأمه (هاجر) عليهما السلام!.

ولستُ أدري هل الأخبار التاريخية يتوقف صحتها على دليل من الكتاب أو السنة؟ وأنا أسأله بدوري ائتني بدليلٍ من السنة على أن «بختنصر المجوسي» هو الذي هدم بيت المقدس؟ وائتني بدليل من السنة على أن اسم نوح هو (نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ) كما ذكره جميع المؤرخين؟ وعلى أن نوحاً أُرسل إلى قومه (بني راسب)؟ ما هذا الشغب بالباطل؟ أنت جاهل أم متجاهل؟ أتريد أن نأتيك على جميع ما يرويه أهل التاريخ بالأدلة من السنة؟ إذاً يجب إلغاء التاريخ بأجمعه

وكذلك السيرة. وإليك الأدلة على قبر نوح، وإسماعيل، وهاجر، ممن لا تستطيع إنكار كلامهم: قال الحافظ ابن كثير: (وأما قبره عليه السلام فروى ابنُ جرير والأزرقي عن (عبد الرحمن بن سابط) وغيره من التابعين مرسَلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام، وهذا أقوى وأثبتُ من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تُعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بُني بسبب ذلك). البداية والنهاية ١/١١٢.

ألم تقتنع بصواب ما قاله ابن كثير؟ أم أنت أعلم منه في الرواية والدراية؟.

ثانياً: ويقول الإمام الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك ١/٣١٤ ما نصه: «إن إسماعيل لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحٰق، وزوَّج ابنته من (العيص) بن إسحٰق، وعاش إسماعيل فيما ذكر مائةً وسبعاً وثلاثين سنة، ودُفن في الحجر عند قبر أمه هاجر». انتهى. تاريخ الطبري.

ويقول الحافظ ابن كثير ١/١٨٠: «ودُفن إسماعيل نبيُّ الله بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكى إسماعيلُ عليه السلام إلى ربه عزّ وجل حرَّ مكة، فأوحى الله إليه إني سأفتح لك باباً إلى الجنة، إلى الموضع الذي تُدفن فيه، تجري عليك روحُها إلى يوم القيامة» انتهى. البداية والنهاية ١/١٨٠.

لقد ساقها الحافظ ابن كثير بصيغة الجزم والقطع، وذكر أن قبر إسماعيل وهاجر في الحجر؟ فهل تريد أن نضرب بكل هذه الأقوال عُرض الحائط لنصدِّق رأيك الخاطىء؟

هذه أهمُّ الاعتراضات والأوهام التي أوردها سيادة الدكتور (محمد محمود أبو رحيّم) أجبنا عليها بما يشفي الغليل، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مكة المكرمة ــ جامعة أم القرى

حاجتنا إلى النقد الموضوعي[1]

اختلاف العقول، وتباين مفهوماتها، وتعدد اتجاهاتها أمر بدهي واقعي بشري لا يماري فيه عاقل، ونتيجة لهذا الاختلاف الطبيعي الفطري في العقول البشرية ومسلماتها من العلوم والمعارف والأفكار، لا بدّ من أن يكون هناك اعتراضات ومخالفات بين المفاهيم والمذاهب والاتجاهات الفكرية وبالتالي انتقاد وجدال بين صاحب هذا المفهوم وذاك المفهوم المعارض أو بين صاحب هذا الاتجاه وذاك الاتجاه المخالف. . .

ومن حق كل إنسان متعلم أو مفكر أو مثقف أن يختلف مع الآخر في رأيه أو عمله الفكري أو مذهبه الثقافي أو أسلوبه في تأليف الكتب. . . إلخ، ولكن ليس من حق المخالف أو المعترض أن ينفعل انفعالاً ينم عن الحقد والبغض والكراهية لصاحب الفكر الآخر. أو المنهج الآخر، وأن ينشط في نشر الإشاعات السيئة عن الشخص الذي يختلف معه، أو يعترض عليه فيما قال من قول، أو كتب من رأي، أو ألّف من كتاب.

قدمت بهذه المقدمة لما لاحظته ــ خلال الأسابيع الأخيرة ــ من أقاويل ومكاتيب ينشرها أصحابها انتقاداً أو اعتراضاً على فضيلة الشيخ محمد علي

---

(١) كلمة الأستاذ أحمد محمد جمال، المنشورة في «الندوة» ١٥ شعبان سنة ١٤٠٦هـ.

الصابوني المدرّس بجامعة أم القرى بأسلوب يتجلّى فيه التحامل والانفعال وينمّ عن حقد وبغضاء، ويخلو من أدب الجدال بالحسنى.

الأستاذ محمد علي الصابوني مدرّس بالجامعة قديم وله مؤلفات عديدة قيمة عن (آيات الأحكام في القرآن) و (الحديث النبوي) ومختصر تفسير ابن كثير، ومختصر تفسير الطبري، وكتاب صفوة التفاسير، وغيرها من كتب ومؤلفات قيّمة ونافعة منها كتاب (النبوَّة والأنبياء) الذي هو موضوع الاعتراض.

الأستاذ الصابوني ـ في كتاب النبوَّة والأنبياء ـ ذكر سيرة سيّدنا عيسى عليه السلام وسيرة أمه الصدّيقة مريم، وأورد نسب المسيح من قِبَل امه كما أثبتها القرآن الكريم، ثم أورد ما جاء في الأناجيل... من أن يوسف النجّار كان خطيب مريم قبل حملها لعيسى، وأنَّه عاش معها بعد الحمل بوحي تلقّاه في منامه دون اتصال بها... إلخ.

وعقب الأستاذ الصابوني على روايات الأناجيل بأنَّها متناقضة ومختلفة مما يجعلنا نجزم بأن أهل الكتاب يكتبون بلا تحقيق ويؤمنون بلا تثبت، ويصدّقون كل ما يلقىٰ عليهم من رؤسائهم، وأنَّ ما في التوراة والإنجيل قد دخل عليه قطعاً التحريف والتبديل كما نصّ على ذلك القرآن الكريم...

واستند الأستاذ الصابوني في ذلك على ما أثبته زميله في الجامعة فضيلة الأستاذ عبد الرحمن حبنّكة في كتابه (العقيدة الإسلامية) حيث أورد أيضاً روايات الأناجيل المتناقضة المختلفة... إلخ.

فكيف يقال إن الصابوني أورد في كتابه (إسرائيليات) أموراً تقشعر منها الأبدان وأخباراً لا تصحّ بحال، وإن ما أثبته في كتابه هو اتهام لأم المسيح بالزنا، مع أن عبارة الإنجيل التي نقلها المؤلف ليس فيها اتهام لمريم بالزنا، بل تقرّر أن يوسف النجّار عاش معها خادماً لله بكل إخلاص ـ وقال في مكان آخر.. اتهمها

بعض الزنادقة ـ هكذا ـ بيوسف النجار الذي كان يتعبّد معها في المسجد، واتهمهما آخرون بزكريا عليه السلام...

فالمؤلف يذكر روايات الأناجيل واتهامات الزنادقة، بأسلوب ظاهر وعبارات صريحة بالاعتراض والرفض ـ لا كما يفتري المفترون عليه...

وبعد، فيكفي أن نذكّر هؤلاء الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ـ بما أنذرهم الله به من عذابٍ أليم...

opeikandl.com

obeikandl.com

رد على مقال أبو رحيم حول النبوّة والأنبياء (١)

قرأتُ ما كتبه السيد محمد أبو رحيم الطالب بجامعة أم القرى حول كتابي «النبوّة والأنبياء» في جريدة الندوة الغرّاء بعددها «٨٢٥٦» الصادر في يوم الإثنين ١٤٠٦/٨/١٩هـ.

وهذا المقال الذي طالعنا به السيد أبو رحيم الفلسطيني الجنسية هو غيضٌ من فيض. وقليل من كثير من كلمات وفقرات، تنم عن أدب جمٍّ، وخلقٍ سامٍ رفيع، تجلّى به الطالب في مرحلة الدكتوراه، الذي وفد إلى المملكة، بمنحة دراسية تقدمها له الجامعة ليكمل دراسته العليا، ومقالهُ جزء يسير من نشرة كبيرة، طبعها بدون إذن من الجامعة، أو تصريح من وزارة الإعلام، ووزعها على أساتذة الجامعة وشيوخ الحرم، وبعض الطلبة المقربين له، اتهمني في هذه النشرات التي وزعها باتهام فظيع شنيع، لا يكاد أحد يتصور أن يتفوّه به مسلم من عامة الناس، فضلاً عن أستاذ في الجامعة، خدم كتاب الله العزيز، وتخرّج على يديه أجيال وأجيال، منهم بعض عمداء الكلّيات اليوم، ومعظم أساتذة الجامعة.. هذا الاتهام هو أنني قذفت «مريم» أم المسيح بالزنى، ورميتها بيوسف النجّار، وجعلني في صفّ اليهود الذين رموها بالزنى، واقترح أن يُقام عليَّ حدّ القذف مغلَّظاً «١٦٠» مائة وستون جلدة لأنها في حق نبيّ من الأنبياء، ونسي السيد أبو رحيم ــ وهو في

---

(١) نشرت هذه المقالة في جريدة «الندوة»، لفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني، ٢٤ شعبان سنة ١٤٠٦هـ. ردّاً.

مـرحلة الـدكتـوراه ـ أو جهـل الحكم الشـرعي، الـذي يجب أن يُتّخـذ في حق القاذف، وهو القتل، لا الجلد لأن من كذّب القرآن كافرٌ مرتَـدٌ عن الإسلام والمـرتد حكمـه الإعدام والقتـل، لا الجلد كما تصـوّره، فاللّه تعـالى يقول عن مـريم ﴿وأمُّه صـدّيقـة﴾ ويقـول: ﴿يـا مـريم إنَّ الله اصـطفـاك وطهّـرك واصـطفـاكِ على نسـاء العالمين﴾ ويقول: ﴿والتي أحصنت فـرجها﴾ فحين يكـذّب الإنسان هـذه الآيات، ويقـول: إنَّهـا زانيـة والعيـاذ بـاللّهِ يكـون كـافـراً لا قـاذفـاً، وحكم المـرتـدّ القتـل لا ما اقترحه باستدلاله الـلامـع!!

«ما الغرض من إخفاء الحقيقة؟»

لقد أخفى السيد «أبو رحيم» الحقيقة عن السادة القرّاء. في مقاله المنشور في جـريدة النـدوة. وخالف كـلامه هنـا ما سجّله هنـاك في النشرة التي وزّعهـا مخالفـة واضحة، فتراه هنا لا يذكر الألفاظ التي تناول بها شخصي، ولا الكلمـات الجارحـة التي تلفظ بهـا خشية أن تتنـاوله أقـلام الكُتّاب الأدبـاء بالنقـد اللاذع لمجـانبته أدب الحديث والخطاب في مخاطبة الأصحاب.

العنـوان الذي ذكـره يخالف الـواقـع، فهو يقـول: وجـدْتُ نفسي بين سـطور الأستاذ أحمد والحقيقة التي وقفت عليها ودونتها في بحثي (نظرات في كتـاب النبوّة والأنبياء للشيـخ الصابوني) مضطراً للرد على الأستاذ أحمد جمـال لما ذكـره الشيـخ الصابوني عن مريم عليها السلام ويوسف النجار. . وأذكر لبيان الحقيقة أنني قـدَّمت نسخة من مسوّدة بحثي المذكور لفضيلة الشيـخ الصابوني. . . إلـخ.

والبحث الـذي نشره ووزعـه لا يحمل هـذا العنـوان مـطلقـاً، وليس فيـه لفظ «شيـخ» ولا «فضيلة» وإنَّما هذا لطف جديد أسداه عليّ مؤخراً في الجريدة، وعنوان البحث هو كالآتي:

(الردّ على الصابوني في النبوَّة والأنبيـاء) ولئلا نحـرم السادة القـرّاء من الألفاظ الـرشيقة اللطيفـة التي أضفاهـا في بحثه المنشـور الـذي وزعه، أقتـطف بعض هـذه

العبارات من الصفحة الأولى حيث يقول: أصل كتاب النبوّة والأنبياء محاضرات ألقاها الصابوني، وذاع صيت الصابوني.. وساق من الإسرائيليات ما تقشعرّ منه الأبدان.. وكان يبتر رأي المؤرخين فيما ينقله عنهم.. ووقع في تناقضات كثيرة.. وفي الجملة كان الصابوني حاطب ليل.. ثم قال بعد ذلك: والتزمتُ الأدب في التعبير معه، ولم يكن ردّي نابعاً من حقد شخصي، أو حقد نفسي، فأنا لا أعرف الصابوني، ولا يعرف الصابوني من أنا... إلخ. ما شاء الله على التزامك الأدب مع الشيخ في التعبير.

«وقفة قصيرة»

ولا بدّ هنا من وقفة قصيرة مع السيد أبو رحيم: هل هو صادق في كلامه أنه لا يعرف الصابوني، وهو طالب في الجامعة منذ خمس سنوات تقريباً، ويقول في بحثه وذاع صيتُ الصابوني، ثم يقول في ردّه على الأستاذ أحمد جمال إنَّني قدَّمتُ نسخة من مسوّدة بحثي المذكور لفضيلة الشيخ الصابوني؟

فكيف عرفت فضيلة الشيخ الصابوني وأنت تقول في منشورك: وأنا لا أعرف الصابوني ولا يعرف الصابوني من أنا؟ وهل صحيح إنَّك قدَّمتَ إليَّ مسوَّدة البحث. أم أتيتني بها جاهزة مبيَّضة بعد أسبوعين من طباعتها وتوزيعها على أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وعلى شيوخ الحرم بعد أن ذاع أمرها وشاع؟ فلماذا تقول غير الحقيقة وأنت على أبواب نيل الدكتوراة؟

«عودة إلى جوهر الموضوع»

ولنعد بالسادة القرّاء إلى لبّ القضية في أمر مريم العذراء.

يقول السيد أبو رحيم إنني قذفت مريم بالزنى كما فعل اليهود، ووافقت على ضلالات النصارى حين أثبتُّ في كتابي صلة مريم بيوسف النجار، وقد تهجَّم في مقاله على الأستاذ أحمد جمال لأنّه أراد أن يدافع عني ويبرّئني من التهمة التي ألصقها بي ــ هجوماً عنيفاً خرج عن حدود اللياقة والأدب، حتى اضطر سيادة نائب

رئيس التحرير الأستاذ يوسف دمنهوري أن يكتب في يومين متتابعين في زاويته «حتى لا نجني على أنفسنا» ما يوقف المشتط عن شططه، ويردُّ المغرور المخدوع بالدكترة عن صلفه وغروره، وأرجو أن يرجع إليهما القارىء ليعرف قصته مع أدعياء القلم.

وإليكم الآن نصَّ كلام أبو رحيِّم الطالب في مرحلة الدكتوراه لتعرفوا كيف تستنتج الأحكام بالنظر الصائب والفكر الثاقب يقول في منشوره في الصفحة «٢».

(وما الفرق بين إثبات الصابوني واتهام اليهود لها بالزنى بيوسف النجار... وما الفرق بين موقف النصارى من نسب المسيح وموقف الصابوني في إثبات صلتها بيوسف النجّار؟).

وتثبيتاً لإدانتي بالقذف لمريم عليها السلام، يقترح إقامة حد القذف مغلّظاً فيقول في صفحة «٣» من المنشور: قال عليّ رضي الله عنه: «من حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة» أقول ــ والقائل أبو رحيِّم ــ: وهذا الحكم ينطبق على كل من حدّث بمثل ما حدَّث به الصابوني... إلخ.

«حقائق ينبغي أن تُعرف»

* **الحقيقة الأولى**: أن ما كتبه أبو رحيّم عني محض افتراء وباطل وكذب وبهتان، ويكفي للتدليل على ذلك أن أنقل بعض فقرات من كتابي ليظهر بجلاء ووضوح للسادة القرّاء من هو القاذف، ومن هو الجاني؟

ــ تحت عنوان: نسب المسيح عليه السلام صفحة «٢٥٠» قلت:

«هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، اسمه «عيسى» ولقبه «المسيح» ويكنّى «ابن مريم» نسبة إلى أمه مريم بنت عمران، لأنه ولد من غير أب وهو عبد الله ورسوله، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة «التي أحصنت فرجها...».

ـ وفي صفحة «٢٥٢» تحت عنوان «من هي مريم»؟ قلت: هي مريم بنت عمران، الصدّيقة البتول، العذراء الطاهرة، التي تربت في حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة، والتي أثنى الله تعالى عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة حيث قال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾.

ـ وفي صفحة «٢٥٣» قلت: نشأتْ مريم عليها السلام نشأة طهرٍ وعفاف، وبعد عن الآثام والمحرمات، فعاشت في جوار بيت المقدس، مكلوءة بعناية الله، محروسة بحراسته ورعايته، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم، فتخبرها بمقامها السامي الرفيع عند الله، وتبشّرها باصطفاء الله لها وتطهيرها من الأرجاس والأدناس... إلخ.

فهل من يكتب هذا الكلام يكون في صف اليهود الذين رموها بالزنى؟!

إنني لا أستطيع أن أتصوّر مسلماً يقع في قلبه أدنى ريب عن عفّة مريم البتول وطهارتها بعد أن حكم القرآن بنزاهتها وبراءتها مما رماها به اليهود اللعناء كما قال تعالى عنهم: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ فكيف طاوعت «أبا رحيّم» نفسه، ورضي له دينه، أن يبتر الكلام بتراً، ويقطّعه تقطيعاً، ليوهم القارىء أنه من كلامي، ويجعلني على قدم المساواة مع اليهود فيقول (وما الفرق بين الصابوني واتهام اليهود لها بالزنى بيوسف النجّار)؟ لشيخ مفسّر من شيوخ المسلمين؟ «سبحانك هذا بهتان عظيم».

* **الحقيقة الثانية**: أن السيد «أبا رحيّم» ظلمني وظلم الكتاب وظلم الحقيقة التي كان ينبغي أن يُقرّ بها ويشكرني عليها. وهي أنني كنت في كتابتي كلها عن السيد المسيح مفنِّداً لأباطيل اليهود والنصارى. مهاجماً لضلالات أهل الكتاب، قاذفاً لليهود ـ لا لمريم الصدّيقة عليها السلام، وقد ردّدت بالحجة القاطعة والبرهان الدامغ، على تعارض الأناجيل وتهافتها حول نسب السيد المسيح فقلت في

صفحة «٢٥٢» ما نصّه: ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات في كتاب مقدّس، يؤمن به مئات الملايين من النصارى، اللهم إلاّ أن يكون ذلك من تحريف رؤساء الدين، الذين أكّد القرآن الكريم تحريفهم للكتب المقدّسة... إلخ.

ولو أنّ «أبا رحيّم» قرأ البحث من أوّله إلى آخره، بروح النزاهة والإخلاص، والتجرّد عن الهوى، لما اتهمني ذلك الاتهام الشنيع.

* **الحقيقة الثالثة**: أنّ صلة مريم بيوسف النجّار عند النصارى صلةُ دين وتقوى، وعبادة، فمريم عندهم هي «العذراء»، العفيفة، الطاهرة، المنزّهة من الدنس، لأنها أم الرب عندهم... إلخ. وصلتها بيوسف النجّار عند اليهود صلة زنى، وفاحشة، فكيف استطاع «أبو رحيّم» أن يوفق بينهما مع أنّهما رأيان متناقضان، متعارضان، ويطوّق عنقي بهذا الوسام الرفيع، بأنني كاليهود في إثبات صلتها بيوسف النجّار، وكالنصارى في ذلك، لا فرق بيننا في ذلك الاتهام.

ولبيان الحقيقة أقول: إن صلة مريم بيوسف النجّار لم تذكرها الأناجيل فقط، وإنّما ذكرها المؤرخون المسلمون كابن جرير الطبري في تاريخه، وابن الأثير في الكامل، وذكرها المؤرخ، المحدّث، المفسّر، الحافظ ابن كثير رحمه الله، حيث قال في كتابه البداية والنهاية ٢/٦٠ ما نصُّه: ذكر غير واحد من السلف منهم، وهب بن منبّه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل، كان أوّل من فطن لذلك رجل من عُبّاد بني إسرائيل، يقال له، يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها، ونزاهتها، وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى، وليس لها زوج، فعرّض لها ذات يوم في الكلام، فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت نعم، فمن أخرج الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماءٍ ولا مطر؟ قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إنَّ الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال

لها: فأخبريني خبرك؟ فقالت: إنَّ الله بشَّرني «بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم...» إلخ، فهل كان ابن كثير قاذفاً لمريم في نظر أبي رحيّم.

* **الحقيقة الرابعة: أنَّ الكتاب قديم طبع منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وحين صدر الكتاب اشترت منه رابطة العالم الإسلامي ووزعته وكذلك دار الإفتاء، وانتشر في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً، وقرّر في بعض الكليات والجامعات في** باكستان، ولم يكتشف أحد من القرّاء والأدباء والعلماء أنّ فيه هذا الاتهام الخطير لمريم العذراء، حتى اكتشفه السيد أبو رحيم بنظره الثاقب.

وبعد، فإنَّ الحديث طويل ذو أشجان؛ وإن تعجب أخي القارىء، فعجب من أمر السيد أبو رحيّم كيف سيتخرج ويحمل شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، من أقدس بلد، وأطهر مكان، من جامعة أم القرى بمكة المكرّمة وهو لا يؤتمن على نقل صحيح من كتاب؟ أو يفهم ذلك الفهم الغريب الذي لم يسبقه إليه أحد، ثم هو ينشر تلك الأحكام التي استنبطها في نشرات يوزعها، يتهم فيها الأبرياء، ويجرح فيها كرامة العلماء، ويقذف بالحمم كل من خالفه في الرأي من الكتّاب، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «إنَّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت».

obeikandl.com

خاتمة البحث

يلاحظ الدارس لحياة الرسل الكرام، المتتبّع لتاريخهم، المستقصي لأخبارهم المتأمل في ترابط أنسابهم ودعواتهم، بعد ذلك الاستعراض الشامل لدعوة المرسلين نقاطاً هامة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: أنّ الله جل ثناؤه لم يقصص علينا أخبار جميع المرسلين، الذين بعثوا إلى أهل الأرض، وإنما ذكر منهم أهمّهم وأعظمهم أثراً في تاريخ البشرية وهم (أولوا العزم) وبقية المرسلين الذين مرّ معنا ذكرهم، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك. . .﴾ الآية.

ثانياً: أنه لم تخل أمة من أمم الأرض من بعثة رسول لها، فقد بعث الله تعالى إلى كل أمة رسولاً، كما قال تعالى:

﴿وإنْ من أمةٍ إلاّ خلا فيها نذيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً. . .﴾ الآية.

ثالثاً: أن هناك بين آدم و (نوح) عليهما السلام فترة من الزمن تقدر بألف عام لم يذكر القرآن الكريم فيها من الرسل إلا (إدريس) عليه السلام، وسكت عن غيره من الرسل ممن أُرسلوا في تلك الفترة من الزمن.

رابعاً: أنّ الله تعالى قد قصّ علينا من الرسل الذين بعثهم بعد نوح عليه السلام، الرسل الذين انحدروا من سلالة سام ولد نوح فقط، ولم يذكر لنا غيرهم.

خامساً: أن إبراهيم عليه السلام جاء من بعد نوح ومن ذريته لقوله تعالى في سورة الصافات بعد ذكر قصة نوح:

﴿وإنّ من شيعَتِهِ لإبراهيم، إذْ جاءَ ربّهُ بقلبٍ سليمٍ﴾.

سادساً: أنّ الله تعالى قد جعل النبوّة والرسالة في ذرية (نوح وإبراهيم) لقوله تعالى في سورة الحديد.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعَلْنا في ذرّيتهما النبوّة والكتابَ...﴾.

سابعاً: أنّ معظم الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم وعددهم ثمانية عشر رسولاً (١٨) هم من ذرية إبراهيم من ولديه (إسماعيل وإسحٰق) إلا (لوط عليه السلام) فهو ابن أخ لإبراهيم، قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحٰقَ ويعقوبَ وجعلنَا في ذريتِه النبوّة والكتابَ...﴾.

ثامناً: أنّ إسماعيل عليه السلام قد نشأ في مكة وتزوّج من قبيلة عربية تسمى (جرهم) ثمّ جاء من سلالته خاتم الأنبياء والمرسلين وأفضل الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ وبه ختم الله النبوّة.

تاسعاً: وأمّا إسحاق فقد نشأ في الشام، وولد له ولدان: الأول يسمى (العيص) والثاني يسمى (يعقوب) وقد ظهرت النبوّة في سلالة العيص في الرسولَيْن (أيوب) وولده (ذي الكفل)، وأمّا يعقوب المسمى (إسرائيل) فقد ولد له اثنا عشر ولداً، هم أسباط بني إسرائيل أحدهم يوسف عليه السلام وجميع أنبياء بني إسرائيل هم من ذرية يعقوب عليه السلام كما تقدم.

عاشراً: الأسباط المذكورون في القرآن الكريم ــ وهم أولاد يعقوب ــ قد ظهرت فيهم النبوة على الشكل الآتي:

١ ــ سبط لاوي ظهرت فيهم النبوة في كل من الرسل المذكورين: (موسى، وهٰرون، وإلياس، واليسع) عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ سبط يهوذا ظهرت فيهم النبوة في كل من الرسل المذكورين (داود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى) عليهم السلام.

٣ ـ سبط بنيامين ظهرت فيهم النبوة في (يونس عليه السلام). والله تعالى أعلم.

تمّ الكتاب بعونه تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
رجب الفرد عام ١٣٩٠هـ

• • •

obeikandl.com